الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة



الحب والصمت

رواية مصرية

عنايات الزيات

الناشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة
١٣٨٦ - ١٩٦٧

الحُبُ والصَمْتُ

رِوايةٌ مِصريّة

المكتبة العربية

تصدرها

وزارة الثقافة

"المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر"

بالاشتراك مع

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

- ٥٠ -

التأليف (٣٥)

الأدب [٣٢]

القاهرة

١٣٨٦ هـ - ١٩٦٦ م

تقديم

كنت أتصفح الكتاب الغريب . وأقرأ سطوره الحالمة وأتخيل المؤلفة التى التى كتبته . كانت الكلمات تسيل رقة وعذوبة . فى إحدى الصفحات تقول المؤلفة :

لبست ثوباً سماوياً باهتا – وتذكرت ملاحظة أخى عن تفضيلى للألوان الباهتة . وردى عليه بأنى أحب هذه الألوان لأنها تجعلنى غير مرئية .

كنت أحب أن أتخفى فى لون باهت تضيع فيه معالم جسمى حتى لا ترانى العيون المحدقة التى تتلفت فى كل مكان .

كانت أنوثتى التى تعلن عن نفسها دون أن تأخذ رأيى – تفضحنى – وتخجلنى .

وفى الشارع حينما كنت أسمع كلمات الاشتهاء كنت أتمنى لو انشقت الأرض وابتلعتنى .

كانت كلمات الاشتهاء ترعبنى وتشعرنى أنى أقرب شىء إلى الخراف المعلقة من ذيلها تغرى بالأكل .

وهى تصف الحب على لسان البطلة قائلة : كانت يده أول يد تمتد إلى

بدفء الصداقة .. بعاطفة المشاركة .. وقد هزتني لمسة الحنان تلك .. عندما قال إنه سيترك لى التذكرة على الباب ذهبت أم لم أذهب ..

وبدت لى التذكرة فى تلك اللحظة صك حرية .. حريتى فى أن أذهب حريتى فى أن أقبل صداقته أو أرفضها وبدا هذا شيئاً بديعاً . أن أكون حرة فى أن أختار من أعرفه ..

وفى الرابعة كنت قد قررت أن أذهب إليه .. وخلق لى قرارى آلاف العوالم السحرية فى حجرتى . ولم أستطع النوم ولا حتى الرقاد مفتوحة العينين فى الفراش ،، قمت أرتب الأشياء التى سأذهب بها إليه .. فتحت الدولاب وأخرجت ثوباً رمادياً باهتاً.. ولكن لا.. أنا لاأريد ألواناً باهتة بعد اليوم.. أنا أريد لوناً إيجابيا .. لوناً يؤكدنى .. ويوجدنى أمام عينيه ..أ نا أريده أن ينظر إلى ويعرف تماماً أنى أمامه ..

فى الخامسة تماماً كنت هناك فى الكازينو أنتظره .. أخذت منضدة على النيل مباشرة .. وجلست انظر إلى المياه التى تختال بين الضفتين .. وسرحت.. وسرحت .. ليتنى نقطة فى هذا النهر العريق ... ليتنى هذا الطائر الشريد يقفز من غصن لغصن .. ليتنى تلك السحابة المصبوغة بالاحمرار أوتلك النسمة المجللة بدفء الربيع .. ليتنى هذا الضباب الزجاجى الشفاف .. ذلك الرداء الذى يغلف النهر والضفاف وهامات العمارات ، والكون يبدو من خلاله سحرياً لامعاً غير حقيقى ..

ليتنى أتحلل إلى ذرات غير مرئية وأنتشر حرة فى الزمان والمكان ..

وهى تصف على لسان البطل كيف عادت بأمل خائب وقلب مكلوم..

ومشيت أتعثر فى تعاسى إلى الباب لأختفى فى سيارة أجرة تحملنى إلى البيت ..

لماذا يبعد عنى أحمد وتفارق يده يدى بلا مبالاة ؟ لماذا تموت أفراح الاهتمام بعينيه ؟ ولماذا يقفل على روحه متاريس العزلة ؟.. إنه يبعد ويضيع ويترك يدى فى استجداء الرفقة والاهتمام..

جلست فى الشرفة وحيدة أنظر إلى الكون .. وأتأمل السماء .. الغروب أعطانى معنى حزيناً بأنى يتيمة وبأنى إله صغيراً بلا أب ، بلا نسل ، بلا علاقات.. الجدران الصماء حولى لاتكلمنى .. والصمت حولى بلا لسان .. نادى بائع بصوت منطوق عادى أرجعنى سنين إلى الوراء .. ماأقبح شكل الباب الموارب وعيون الظلام .

رخص وقتى فجأة .. وأصبح وقتاً عادياً .. واكتشفت أن انتظارى لأحمد هو الذى كان يقيم زمنى ويعطيه المعنى .

وتذكرت فى الحال عشرات الأشياء التى أبدأ فيها ولا أنهيها . عشرات المفارش التى تنتظر غرزة النهاية ، واللوحة المشدودة على الحامل تنتظر اللمسة

وهى تصف بعمق حـالات عذاب النفس وتمزق الوجدان الأخيرة ، شعرت أنى منفيـــة داخل نفسى وفى حاجة ليـــد تخرجنى من داخلى ، أحمد كان يحاول ، ولكنه كان ما يلبث أن يبتعد ويتخلى عنى . صوته هو الآخر أصبح يأتى إلى من طريق أذنى مثل سائر الأشياء .

أنا وحيدة فى العالم كله . والناس يبدون مثل نقاط على الأفق الوهمى البعيد .

أنا منفية عن نفسى ، لا أحد قادر على استصدار عفو عن روحى لتعود فتحس أن جسدها هذا هو وطنها الصغير الحبيب الذى تملكه .

لو أستطيع أن ألغى وجودى وأوجد فى مكان آخر وزمان آخر . زمان آخر . نعم زمان آخر .

ربما أنا فى الزمان الخطأ .

إن مجرد تخيلى دنياى بدونه - بدون حبيب - يجعلها قفراء خالية من كل جميل . بعده عنى يجرد دنياى من كل شىء فلا يبقى منها إلا قبح التكرار ورعب الوحدة .

إن أحمد هو الوحيد الذى يتكلم لغتى فى بلد لايفهمنى فيها أحد .

وفى غمرة اليأس تتذكر أحلامها وتكتب كلمات غريبة مثل قطع من الثلج الملتهب : كنت أحلم بأن أكون امرأة خالدة تصنع شيئاً خالداً وتؤثر فى الأجيال .

وكنت فى الماضى نشيطة ، وحاولت فعلا . رأيت أن الحياة حولى كانت وهماً . كل شىء وهم ... خيال...

انكسر شىء كان بداخلى وانهار ، والآن أشعر أنى لم أعد أتمنى شيئاً ، لا الموت ولا الحياة . لا الحب ولا الكراهية . جفاف فى جفاف . لا شىء يبكينى . لا شىء يضحكنى . ومع ذلك فالابتسامة لا تفارق شفتى . أهى ابتسامة إشفاق ؟

لم يبق لى إلا ذكرى .

ذكرى أنه ذات يوم بعيد كنت أحلم بأن أصنع شيئاً عظيماً .

وأحياناً تتحول كلماتها إلى تغريدة حزينة من الشعر الرفيع الملهم ، فتبكى وكأنها تغنى . وتهدهد قلباً طفلا يرتجف .

عندما يلفنى الحزن كضباب الشتاء ، وتتساقط بقايا ابتسامات الصيف كأوراق الخريف .

عندئذ تبكينى الستائر المسدلة والشمس الشاحبة عند الأفق .

وأغرق فى بحور ذكرياتى ذات العودة المستحيلة .
وأرى شبابى فى نضجه عديم الفائدة ... رعديداً ...
وأحس بالتلاشى . لا بأنى غير موجودة .
ويصبح كل شىء سخيفاً بلامعنى . بلا حقيقة باهرة .
ولا أجد مخرجاً سوى أن ألوذ بكبريائى ، لأحتمى من اليأس .
وأشمخ بأنفى عالياً حتى لا يصل الضباب إلى قمتى الغالية .

★ ★ ★

هذا الكتاب الرقيق « الحب والصمت » هو الكتاب الأول والأخير الذى كتبته المؤلفة الملهمة عنايات الزيات . فالمؤلفة ماتت شابة لم تبلغ الثلاثين.

كانت آلام قلبها العبقرى وإنسانيتها المعذبة فوق احتمالها .

أزكى الرحمات على روحها النقية وفنها الرفيع .

(مصطفى محمود)

١

وقفت وراء زجاج نافذتى أرقب الطريق . الشارع خــال موحش ، ونوافذ البيوت مغلقة ميتة ، لا حياة ، ولا حركة . الزمن توقف ، والدقيقة أصبحت ساعات مملة .

وقتى رخيص ، لا أعرف ماذا أفعل به . أنا لا شيء ، ذهبت وجئت فى الحجرة ، ونظرت من النافذة ، وأمسكت بكتاب عدة مرات ، وحاولت فى كل مرة الاستمرار فى القراءة ، ولكنى فشلت ، فأقفلت الكتاب ، وانتصر الفشل كانتصاره الدائم على . منذ موت أخى لم أعد أستمر فى أى شيء .

أنا فى الثامنة عشرة ، سن الشباب كما يقولون ، ولكنى أشعر أنى هرمت فجأة وأصبحت كهلة .

ها هو الشتاء يعود من جديد ، يهز بريحه شجرة المشمش الوحيدة فى فى حديقتنا ، ويبعث قدومه الرعشة فى أوصالى ويشيع الأسى فى روحى . أوراق الشجر تتساقط على أرض الحديقة وتتجمع فى زوايا الشارع ، ويتساقط معها فيض من الذكريات الحزينة فى خاطرى . ويدفع بإحساس حزين ساحق إلى قلبى فيغمره بظلامه ويجتاح نفسى من جديد شعور حاد بضياع ذلك الشيء الثمين من حياتى بضياع أخى ، بموته ورحيله .

بموت هشام فقدت الاهتمام بنفسى ، بحياتى ، بكل شيء ، فقد كان

باعث بهجتى وخالق نجاحى ، ولكنه رحل ولم ينتظر ليعرف أنى نجحت وتخرجت من مدرستى الفرنسية ولم يعد لنجاحى أى معنى . مافائدة نجاحى إذا كان هو قد ذهب ؟ ما فائدة أى شىء ، ما فائدة أى شىء على الإطلاق ، وما جدوى حياتى ، وما جدوى الحياة كلها ؟ رحل هشام ، ومضى بعيداً ، وتركنى مع الوحدة والفراغ ليقتلانى . الوحدة والفراغ اللذان عششا فى زوايا البيت ، وصنعا عنكبوتاً مروعاً يمتص الحياة ويبعث اليأس فى القلب .

والآن عندما أعيد النظر حولى ، وأرى ما تحولنا إليه — أبى وأمى وأنا — لقد حولنا الحزن إلى ثلاثة غرباء ، والصمت أصبح حديثنا . لقد تهشم غلاف الحنان الذى كان يطوقنا ، وسقط حولنا الموت وباعد ما بيننا .فبعد موت هشام انفصل أبى عنا . أقام لنفسه عالماً آخر — من صنعه — يعيش فيه ، وأمى أصبحت كثيرة الصمت قليلة الكلام ، وكان يخيل إلى عندما أكلمها أنها تنظر من خلالى لترى شخصاً آخر فى ملامح وجهى ، ولا ترانى أنا ، وأصبح وجودى أنا اضطراراً ، وخلت حياتى فجأة من أى معنى . فهشام كان الإرادة التى تقف وراء نجاحى ووراء حبى لأى شىء . كثيراً ما تخيلته ساحراً قادراً على الإتيان بالمعجزات ، والآن تمر أمامى صورته كما أحببت دائماً أن أراه وهو يلعب على « المتوازيين » وكأنه روح رفافه لا يحدها جسد . أصداء صوته ما زالت ترن فى أذنى حاملة نفس الكلمات عندما سألته عن سر حبه لتلك اللعبة ، أجاب يومها دون أن يتوقف عن التأرجح : « إنها لعبة الإرادة . إنها تتيح لى التحكم فى جسدى كما تتيح لى دراستى التحكم فى عقلى عن طريق الفكر والفلسفة » . وأضاف وهو يضحك « التحكم هو مفتاح النجاح » .

وكيف مات ؟ مات باللعبة التى أحبها والتى كانت وسيلته للتحكم فأصبحت قاتلته .

كان يتمرن فى ملعب النادى عندما اختل توازنه ففقد التحكم فى نفسه لثوان ، وسقط بثقل جسده كله على رأسه فمات .

يومها دخلت الفيلا فقابلنى السكون . فتح لى عبده السفرجى الباب وفى عينيه آثار دموع . لم يحينى كعادته ، ولم ترتسم ابتسامته التقليدية على شفتيه . كان وجهه حزيناً جاداً .

وتوجست شراً فعبده كان مرآة شفافة لأطوار هشام . كنت أعرف مزاج هشام من مجرد النظر إلى وجه عبده عند دخولى من الباب ، وكان حزنه فى ذلك اليوم يعنى شراً كبيراً ، ولم أسأله . جريت أصعد الدرجات إلى أعلى ، إلى حجرته ، وهناك كان يرقد فى فراشه وأبى وأمى عند قدميه . نظرت فى وجهيهما ، لم تكن هناك دموع فى عيونهما ولا حزن ، فالحزن ثمرة آلام لها عمر ، وكان يبدو لى فى تلك اللحظة أنهما حزينان منذ الأزل .

وخطوت ببطء إلى فراشه ، وامتدت يدى دون إرادتى فكشفت الغطاء عن وجهه ، وصرخت أمى وقام أبى إليها وخرج بها من الحجرة .. ونسيانى فى غمرة بكائهما ، ونظرت أنا إلى وجهه فلم أصدق أن « هشام » يمكن أن يموت .. ولم يكن وجهه سوى وجه نائم .. فقط بلا أنفاس تتردد فى صدره .. وبدا لى ساعتها أن الأنفاس غير مهمة لهشام .. وأنه يستطيع أن يقوم الآن ويجرى ويضحك ، وأنه أقوى من أى إنسان ، ولن يحتاج إلى تلك الأنفاس الرخيصة ليحيا .. ومددت يدى أتحسس وجهه ربما يحس بملامسها ويفتح لى عينيه .. أنا أخته نجلاء .. ولكن وجهه ظل ساكناً مثلجاً .. وخيل إلى أن شيئاً من الزرقة يتسلل إلى شفتيه ، ويتسرب تدريجياً إلى وجهه كله .. ولأول مرة داهمنى شىء من الخوف منه والخجل من نفسى .. لأنى أخاف أخى عندما سلبت منه الروح .. وأحسست أنى أتلصص على كيان شخص

لا أعرفه وخيل لى أنه يشيح بوجهه عنى .. ولم أحتمل هذا الخاطر فقد سلمت لأول مرة بموته.. ارتميت على جسده، أحتضنه فى هستيريا ، أحاول بصراخى أن أعيد له الحياة . فتح الباب فى تلك اللحظة ودخل شخص حمله إلى الخارج.. ورحت فى غيبوبة ومن خلالها سمعت صوت خالتى اللزج يؤنب أبى على تركى لى وحدى فى حجرته ولم أسمع شيئاً بعد ذلك .

امتلأ البيت بالأقارب والأصدقاء ، وجاءت أختى (نهى) من انجلترا حيث يعمل زوجها فى السفارة هناك .

الكل جاء يعزى .. وامتلأ البيت بعشرات العيون تحدق فى وتفرض نفسها على وتدخل فى أعماقى .. وأحسست أنى عارية وأن تلك العيون تتلصص على خصوصية تفكيرى وتفرض نفسها على وتقرأ أفكارى .. وشعرت أن فرديتى تبتذل وتضيع فى زحمة العيون الفضولية .

حبست نفسى فى حجرتى لأنفرد بحزنى .. وأبكى .. وبكيت أياماً وليالى عديدة ورهفت روحى ولم أعد أحتمل أى صوت .. وأصبحت لا أعيش إلا فى السكون وفى الحجرات المغلقة .. وأصبح صوت فتح باب أوغلقه يفزعنى .. ثم بدأت أهدأ وأتبين الشخص الواقف أمامى .. وغالباً ما كان شبح خالتى .. جاءت تطمئن على (نجلاء .. لا تحبسى نفسك فى الحجرة.. ستموتين من كثرة البكاء) .. ولم أكن أرد عليها ، كنت أريد أن أموت حقاً .. وكان صوتها اللزج يطن فى الحجرة ويلتصق بأذنى ويرفض الخروج .. وكان يمر وقت طويل قبل أن تضيع ذبذبات صوتها من أذنى .. ويعود السكون .

وآن للجميع أخيراً أن يرحلوا .. ويتركونا لوحدتنا .. وسافرت أختى راجعة إلى أسرتها .. ولست أدرى لماذا شعرت أنها ليست حزينة الحزن الكافى على هشام .. ويومها بعدت عنها .. فالحزن على هشام لا يربط بيننا وكنت قد أصبحت أحب حزنى لأنه امتداد لحبى لهشام .

جاءت نادية صديقة الطفولة ورفيقة الدراسة لتقيم معى بعض الوقت.. وكنت فعلا فى حاجة إليها هى بالذات.. فقد كنت أستريح إليها .. ولم أكن أخجل من أن أعرى أفكارى أمامها .. ولا كنت أخجل من خوفى ولا من حزنى .. فقد ربطت بيننا الصداقة والرفقة سنين عديدة وبدت لى فى تلك اللحظة أقرب إلى قلبى من (نهى) .. كانت صلة القربى بيننا أشد من الأخوة.. فقد عشنا معاً طفولتنا .. كبرنا معاً ولعبنا معاً .. وتفتحت قلوبنا فى سن واحدة. واجتاحنا ذلك الإحساس اللذيذ المؤرق بأنوثتنا .. وداعبتنا تلك الآمال المبهمة الغامضة .. خيالات الحب الأول .. وفارس الأحلام .. والقبلة الأولى ولحظات الكآبة وخوف الفراق .. والبكاء .. والدموع .. والضحاك الغريرة الطفلة ..والتغير الخطير الذى اجتاح جسدينا وغير ملامحه .. كل تلك العواطف الفوارة عشناها معاً .. وعانيناها سوياً فتعانقت عواطفنا ومشاعرنا وكأنها حياة واحدة.

لم تتركنى نادية لأحزانى . كانت تشدنى خارج نفسى وتأخذنى إلى بيتها، وهناك كانت الحياة تفرض نفسها على فكنت أنسى لبعض الوقت « هشام »، وعندما أرجع كنت أعتب على نفسى وأعنفها تعنيفاً شديداً أنى استرسلت فى الحياة لدرجة أنى نسيت « هشام » .. وأصبح اسم أخى يترادف فى ذهنى مع سؤالى الدائم عن الموت .. وتخيلته أرضاً مجهولة الشواطئ مطوقة بالغموض من يكتشف شواطئه لا يعود قط .

ورقدت قلقة فى الفراش .. ودقت الساعة فى هدأة الليل هامسة بأن الزمن مازال يمضى وئيداً ..

اليوم هو فجر التاسع عشر من نوفمبر ١٩٥٠ ، أنا راقدة فى الظلام وخوف يملأ قلبى .. وتساؤل .. هل هذا تاريخ حقيقى ؟وهل الساعة تشير حقاً إلى الثالثة صباحاً ؟

مات أخى ومات عدد من أقاربى فى تلك السنة عن حادثة أو كبرأو مرض.. تلك الحوادث تبدولعينى مجرد أسباب واهية تنتهى بها وظيفة الجسد وتأخذ الروح طريقها إلى عالم آخر .

لماذا نوجد ؟ .. ونعيش ثم نموت ؟ أسئلة كنت أسألها لنفسى وأنا صغيرة ولم أكن أجرؤ على البحث عن أجوبتها فى أفواه الآخرين . والآن بعد أن مرت سنين عديدة .. مازلت أتساءل نفس السؤال مع اختلاف بسيط ، فأنا أعرف أنه حتى الآخرون لا يعرفون الجواب أيضاً .

طفولة حلوة عشتها .. ولكن أحقاً عشت تلك السنين ؟ ذلك يبدو زمناً خرافياً غير حقيقى وهذا اليوم الذى أعيشه الآن .. ستتراكم عليه أيام .. وأيام .. وأيام حتى يصبح هو الآخر يوماً أسطورياً بعيداً .. أشك كثيراً إن كنت عشته حقاً من قبل .

ديك يصيح فى الظلام .. وينفذ صوته إلى أذنى الساذجة .. فيخيل إلى أنه يؤذن خصيصاً لى .. ما أنا إلا روح داخل جسد أنثى راقد فى فراش.. فى هدأة الليل كالآلاف وملايين الملايين من الناس .

ولكن فرديتى تتضخم وتعزلنى داخل نفسى .. وتفصلنى عن الكل ..
أحياناً أجدنى أنظر من داخلى من نافذة عينى إلى الناس والأماكن حولى ولكنى لا أتفاعل معهم .. وكأنى قد انفصلت عنهم .. وعن وجودى .. وخرجت من داخلى أتفرج وأسمع وكأنه ليس لى جسد يتحرك ويعيش .
أحياناً أشعر أنى عشت حياتى من قبل ، فلماذا وجدت من جديد ؟
أنا أحس بالغربة عن الناس . أحياناً أشك أنى أحيا فعلا وأنى موجودة.
سأترك جثتى الحية تعوم على صفحة الليل لتنقلنى للغد ، لأيام أخرى قديمـــة .

٢

خرجت بعد ظهر اليوم إلى الشارع .. لم آخذ العربة .. ولم أرد على تساؤل السائق (هل أخرج العربة من الجراج؟) .

مشيت وحيدة .. لا يصاحبنى سوى وقع خطواتى فى الطريق الساكن .. ظللت أمشى من شارع إلى آخر .. وقادتنى قدماى إلى شارع هادئ كثيف الظلال وتبينت أنه شارع مدرستى .. وبدا لى المبنى الرمادى من بعيد كوجه حميم مألوف لدى .. وارتفعت خفقات قلبى بالوجيب للمبنى الحنون .. وأرسلت عينى تتبركان بالنظر إليه .. إلى ذلك المبنى العطوف الذى له طابع الأديرة .. وأرسلت روحى تتلمس ذلك الجلال المستتر الذى يشع من وراء كل حجر .. وأخذتنى الذكريات فى دوامتها .. هنا تسكن بضعة من حياتى .. من أجمل سنى عمرى .. خطت قدماى ببطء حتى لا تجرح هذا الصمت الحى أو تبتذل صدى خطواتى جلال السكون المحيط بى ..

نظرت إلى المبنى مرة أخرى .. وتساءلت لماذا قادتنى قدماى إلى هنا .. إنى أبحث عن حقيقة ألوذ بها .. ومدرستى تلك حقيقة قائمة .. لم تذهب بها الأيام .. إنها ما زالت قائمة ..

همس فى أذنى همس غريب .. ومن يدرينى أن هذه الحقيقة لا يمكن أن تذهب هى الأخرى ذات يوم ..

وهشام ؟ ألم يكن حقيقة ضخمة نابضة حية ؟ . وفى لحة .. انهتى .. وأصبح وكأنه لم يوجد .. بل إنه لتمر على أوقات أكاد أنساه فيها تماماً .. لاشك أن موت « هشام » الحقيقى هو نسيانى له .. وأنه سيظل حياً طالما أنى أذكره .. فأنا التى أحيا وعن طريقى يحيا هو الآخر ..

طوفت حول المدرسة .. وشقشقت بعض عصافير عائدة إلى أعشاشها .. ودارت حدأة كبيرة دورة كاملة فى الفضاء المحيط بالمدرسة .. وانقضت على الأرض .. ثم عادت للتحليق من جديد .. وجلجل جرس الكنيسة يدعو الراهبات للصلاة .. ومضيت على أصداء صوته راجعة مع الغروب إلى الفيلا .. وإلى حجرتى ..

جلست فى الشرفة وحيدة أنظر إلى الكون .. وأتأمل السماء .. وأعطانى الغروب معنى حزيناً بأنى وحيدة .. كأنى إله صغير بلا أب ، بلا أبناء ، بلا نسل ، بلا علاقات ، ألوذ بنفسى وأخافها ، جدرانى الصماء لا تكلمنى ، الصمت من حولى بلا لسان ، جسدى مغلق بلا نوافذ ، بلا أبواب ، أتمنى النزول إلى الطريق من جديد لأكلم أى إنسان ، أريد الخروج من داخلى والإحساس بوجودى الخارجى .

تلفت حولى .. ستائر الظلام أسدلت على الكون كله . ماأقبح شكل الباب الموارب وعيون الظلام .. نادى بائع بصوت ممطوط عادى أرجعنى سنين إلى الوراء وتسللت أصوات الليل إلى أذنى .. وتذكرت « هشام » تدريجياً بدأ الصمت يحتضر وتكلم السكون أخيراً وثرثر .. وأضاء الظلام .. هزتنى نسمة باردة أدخلتنى إلى حجرتى .

أقفلت الشرفة .. وأضأت « الأباجورة » .. وجلست مع نفسى وحيدة . فى الصباح رقدت كسلانة تحت أشعة الشمس .. وتركتها تدغدغنى

وتدلكنى وتركت عقلى يقفز مهوشاً من فكرة إلى أخرى .. تركته هو الآخر مطلق السراح كبقية أطرافى . تقلبت فى مكانى وفتحت عينى فوجدت (نادية) واقفة أمامى.. سألتها باستغراب :

– أنت هنا .. منذ متى ؟

– منذ خمس دقائق .. وقفت أتفرج على كسلك .

– وأنت كللك نشاط يا نادية هانم ؟

– يمكن .

– هيه .. وما هى أخبارك ؟

واستدرت أكثر فرأيتها فى بلوزة مزينة بورود حمراء جميلة .

– جميلة بلوزتك يا نادية .

– شكراً .. والآن قومى واجلسى معى كالآدميين .

– أنا كسلانة .. والشمس لذيذة .

– كيف تحتملين العيش هكذا ؟

– ماذا أفعل ؟

قالت فى حيرة :

– لست أدرى ؟ .. ولكن ..

ولم أدعها تكمل كلامها .. أرسلت صوتى فى نغمة ساخرة ..

– هيه ..

فأثارها صوتى وقالت بحدة :

– ولكنك تستطيعين أن تعملى شيئاً بلا شك .. لماذا لا تخرجين من حياتك هذه ؟

– كيف .. ؟ وإلى أين ؟

– إلى الدنيا .

– حقاً ؟ هكذا ببساطة ؟ وماذا فعلت أنت بحياتك وبالدنيا ؟

– أنا هنا لأقول لك إنى قد اشتغلت ..

– صحيح يا نادية .. ؟ مبروك .. أنا فرحانة .. فرحانة جداً من أجلك ..

– إذا كان العمل يعجبك حقاً فلماذا لا تعملين أنت أيضاً ؟ ربما شغلك العمل عن حزنك ..

ونظرت إليها بمعن وقلت :

– حتى أنت تتكلمين كأبى وأمى .. ؟ وماذا يضايقكم من حزنى ؟إنه شىء خاص بى .

– ولكنه يؤذيك ..

– وأنا أحب إيذاءه .

قالت نادية فى عتاب :

– نانا يا عزيزتى ، لا تتركى نفسك لهذه الأفكار .

– أنت تقولين هذا الكلام يا نادية .. وأنت تعرفين ماذا كان هشام بالنسبة لى.. وما فائدة أن أعمل أولا أعمل .. وما فائدة أى شىء على الإطلاق ..

حاولت نادية مقاطعتى .. ولكنى مضيت فى كلامى .. كنت أسمع معها ما أقول .. وكأن شخصاً آخر انبثق يتكلم من داخلى ولاأعرف أى شىء عما سيقوله فى اللحظة التالية .. كنت أغمغم فى نبرات آلية ..

– كنا نحلم أنا وهو ..

كنا نتخيل أننا نسافر إلى بلاد بعيدة .. وكنا نسافر بالفعل ونحن جلوس حجرتنا بأعلى الفيلا .. كنا نركب جناح خيالاتنا إلى أى مكان نريده ..

كانت لنا القدرة على أن نفعل أى شىء .. الآن بموته أشعر أنى انتهيت.. إننى أمشى فى ضباب .. عجوز الروح مكتهلة الفؤاد. بل لست وحدى التى أصبحت عجوزاً .. كل البيت . انظرى حولك .. هل هذا بيتنا الذى تعرفينه ؟كل شىء .مات فيه حتى الورود فى الحديقة ذبلت وشاخت.. وتركتنى نادية أتكلم وقد شعرت أنى أجد راحة فى الكلام ..

وتندت عيناها بالدموع ..

٣

تشبثت بوحدتى .. وأويت داخل نفسى وأحكمت الرتاج .. وأصبح عالمى جدرا ناً أربعة .. وشريطاً أسود من السماء بين ستائرى الرمادية ..

سقطت فى بئر الوحدة المظلم باختيارى ورفضت النجاة ، ومضت الأيام قديمة كدهور كاملة بلا أحداث .. فالأيام تتابع كصفحات بيضاء بدون كتابة .. والزمن يمضى ككل شيء .. الثوانى تتحول إلى دقائق .. والدقائق تتضخم إلى ساعات .. ثم يمضى يوم مثل الأمس .. ويأتى الغد .. ويتسرب عمرى من مفرق الزمن .. تعبت من العمر الذى ضاع .. ومن العمر الذى بقى فى دنيا أنا لست فيها شيئاً ..

لم يعد عند نادية وقت تضيعه معى .. أخذ العمل كل وقتها وكل نشاطها ، حتى وقت فراغها كانت تستريح فيه ، أو إذا جاءت تحدثت عن العمل ..

وجاءت نادية فى يوم .. وقرأت خلال قلقها وتحركها من مكان لآخر شيئاً تريد قوله .. وأخيراً هدأت حركتها وقالت :

نجلاء عندى عمل لك .. معى فى الشركة ، سنكون معاً .. أظن ليس عندك عذر تتعللين به .. هيه .. مارأيك ؟

ابتسمت لمرحها .. وحسدتها على حبها للحياة ولم أستطع إخفاء حسدى فقلت وأنا أتأمل حركاتها الراقصة النشوانة :

ــ نادية .. أتعرفين أنى أحسدك ؟
ضحكت نادية وقالت بمرح
ــ جميل هذا .. معناه أنك فى طريقك إلى الشفاء .. ومادام فى مقدورك أن تحسدى الآن فغداً سيكون فى مقدورك أن تحبى .. هيه .. ما رأيك فى العمل ؟
أجبت فى ضعف :
ــ أنت تعلمين أنهم لن يرضوا أن أعمل .
ثم أردفت :
ــ لو أردت أنت لما كان لرفضهم قيمة ..
ــ لوأردت .. لو أردت .. أنا لا أريد شيئاً .. لاشىء له قيمة حقيقية عندى
ــ بل هناك أشياء لها قيمة عندك وأنت تحسدينى عليها ..
ــ ولكن أبى لن يوافق .
ــ بل سيوافق لوصممت أنت .. ثم إنه سألنى من يومين عن عملى .. وهنأنى عليه وعندما عرف باسم الشركة .. أضاف بأنها تتمتع بشهرة طيبة وقال أيضاً إن صاحبها ومديرها صديق له .
وسكتت برهة ثم عادت تسأل :
ــ ماذا قلت ؟
أجبت :
ــ سأحاول ..
ــ بل ستعملين معى .. ومن الآن ..
دققت الجرس أطلب كوبين من عصير الليمون أغير بهما طعم الحديث وراحت نادية تتكلم باستفاضة عن مدير الشركة وعن طريقة عمله .. وعن أدبه .. وأيضاً عن شكله المهيب .. قلت لها فجأة :

— نادية .. أنت تحبينه ..

احمر وجهها كله ودافعت عن نفسها وكأن على رأسها « بطحة » :

— أنا ؟ أبداً ، أبداً .

قلت بإصرار :

— نادية أنا أعرفك عندما تحبين شخصاً .. أنا لا أنسى حبك للراهبة (أنجيل)

سرحت نادية بعينيها :

— آه .. سور أنجيل .. كانت أيام ..

وشفت عيناها واخترقتني بنظراتها راجعة إلى الماضى ، مستعيدة هزات الحب الأولى فى قلبها وإن كانت هزات شاذة .. نادية طول عمرها فوارة العاطفة .. فى سن المراهقة لم تجد أمامها سوى أن تحب امرأة من جنسها.. كان الحب الطبيعى فى نظر مجتمعنا ونظر عائلاتنا عيباً كبيراً .

انتزعت نفسها من ذكرياتها .. ونظرت إلى طويلا وابتسمت فى صراحة. وقالت بالفرنسية وبلهجة كلها نشوة :

— نعم أعتقد أنى أحبه ..

وفهمت لماذا قالتها بالفرنسية . كانت الكلمات الأجنبية تخفف من وقع ومعنى الكلمات وتستر الواقع العارى بغلالة مهذبة .

قامت نادية لتذهب وقمت معها أودعها . سلمت على وأخذت منى وعداً بأن أكلم أبى فى موضوع اشتغالى وأنا حائرة كيف أناقش فكرة أنا لست مقتنعة بها كل الاقتناع .. لو رفض أبى لما وجدت فى نفسى القدرة على معارضته .

٤

بعد الغداء دخلت إلى حجرة المكتب لأنتظر أبى حيث يتناول قهوته كالعادة . اقتربت من المكتبة أتظاهر بالبحث عن كتاب أقرؤه وحتى أعطى لنفسى مهلة للتفكير .. فربما وجدت ثقب حنان فى جمود أبى أدخل منه للحديث . سمعت وقع أقدامه الخفيفة تدخل الحجرة وتخطو فوق السجادة .. أشاع دخوله فى حركاتى اضطراباً .. وبعث فى قلبى خوفاً وهماً ثقيلا .. ورأيته دون أن أنظر إليه يجلس فى كرسيه المعتاد . وكما توقعت نشر الجريدة المسائية، وجلس يقرأ فيها دون أن يسألنى أو يكلمنى فى أى شىء وكأنه ليس فى الدنيا كلها أى حديث يمكن أن نشترك فيه نحن الاثنان .. وبعد لحظات طويلة سمعت أوراق الجريدة تطوى فى يده .. وأملت أن يكون قد وجد الحديث المفقود بيننا .. فاستدرت بلهفة انظر إليه ولكنه قال :

— نجلاء أتريدين أن تقولى شيئاً ؟

قلت فى خيبة وحيرة :

— لا ياأبى أنا أبحث عن كتاب أقرؤه ..

قال بنفس نبرات صوته الجافة :

— لم أكن أعلم أن لك اهتماماً بالقانون

قلت فى دهشة .. بالقانون !؟

— نعم بالقانون .. أنت واقفة منذ عشر دقائق أمام مراجع القانون .

وأردف فى جفاف :

— هناك شىء تريدين أن تقوليه .

تراجعت منهزمة أمام كلماته .. ووقفت أعترف برغبتى فى العمل .. وكأنى أعترف بخطأ كبير . قلت بدون مقدمات :

— أبى .. أريد أن أعمل .

قال بلا اهتمام ..

— تعملين ؟

ثم نظر إلى يتمعن ، وأكمل :

— وماذا تريدين أن تعملى ؟

قلت والرهبة تتزايد فى صدرى :

— عند نادية فى الشركة وظيفة جديدة .

وأردفت فى اضطراب :

— وسنكون معاً أنا وهى .

ثم أضفت بصوت منخفض كأنى أكلم نفسى :

— وأنا أحس بفراغ .

نظر إلى ملياً وقال بسخرية :

— تعملين مثل نادية بخمسة عشر جنيهاً ؟ كأجر مرغنى السائق ؟

وأكمل بشىء من العطف :

— هل ينقصك المال ؟ لماذا لم تطلبى ؟

امتدت يده إلى المحفظة ، وأخرج أوراقا مالية ..

انتابتنى جرأة مفاجئة فربما استطعت الدخول من ثقب العطف الذى بدأ يفتح أمامى ..

- أنا فى حاجة للعمل وليس للمال .. إن الفراغ يقتلنى ..
- تشعرين بفراغ .. لماذا لا تذهبين للنادى .. لماذا انقطعت عن صديقاتك؟
عدت أقول .
- أنا أكره النادى منذ موت هشام فى الملعب .
قال كأنه وجد حلا لكل مشكلاتى :
- إذن سافرى عند جدك فى العزبة . إن التغيير سيفيدك ومنظر الفلاحين وهم يعملون سيجعلك ترضين بحياتك السهلة الموسرة .
قلت فى إصرار جديد :
- ولكن يا أبى لماذا ترفض فكرة عملى ؟
قال فى نفاد صبر :
- لأن فى ذلك نزولا بمركزنا الاجتماعى .. لاأريدك أن تنسى ابنة من أنت..
وفهمت بصعوبة لماذا هنأ نادية وأيد عملها .. لأنه يوافق أن تعمل نادية ابنة الرجل الآخر .. أما ابنته .. لا ..
أعطانى فهمى حماسة مفاجئة .. فعدت أقول :
- ولكن يا أبى ..
ولكنه قاطعنى بقيامه فجأة واضعاً الأوراق المالية بين يدى ، وخرج من الحجرة وأغلق الباب وراءه ، وبداخلى أغلقت أبواباً عديدة واحداً بعد آخر .. وبقيت مع نفسى وحيدة ..

انطويت على عزلتى .. وأصبحت لا أخرج من الفيلا تقريباً .. وازددت هزالا وبدأت تنتابنى الهواجس والأوهام وضخمت الوحدة كل شىء من حولى وأصبح وقتى ظلاماً لا أستطيع تبديده بسراج اهتماماتى الصغيرة . .
وفى يوم دخلت أمى قائلة :
- سيزورك الطبيب اليوم .

ـ طبيب ؟
ـ سيأتي بعد نصف ساعة .. كوني مستعدة .

طبيب ؟ لماذا ؟ أنا لا أحب أن ينظر إلى جسدي أحد وينقر عليه ويعبث فيه بأصابعه . حرارتي ليست مرتفعة ولست أشكو من شيء .. طبيب ؟ لماذا ؟

ولكن بعد فترة وجدت نفسي أطيع الأمر ، فخلعت بيجامتي وتصادف مروري بجانب المرآة . توقفت لحظة .. وأطلت تأمل الصورة المرتسمة أمامي في المرآة .

لقد أصبحت كالفاكهة المحفوظة .. نفس الأنف والعينين والفم ولكن بلا نكهة ، بلا حياة .

مشطت شعري دون اهتمام وأنا أفكر .. أنا أتنفس وأتحرك .. أنا حية ولكنني لا أعرف (كيف) ولماذا ؟

بعد نصف ساعة دخلت أمي ووراءها طبيب .. جلس قبالتي .. واخترقتني عيناه دون أن يراني وهمس ببضع كلمات وأمرني بأن أفتح أزرار ثوبي ..

وانسابت السماعة كالأفعى تتحسس جسدي .. ثم طلب مني الجلوس ثانياً وراح ينقر على ظهري .. وأمرني بأن أسعل .. وأقول آه .. ثم تركني وقام يكتب تذكرة الدواء .. وغاظني الطبيب .. لقد كشف على ككتلة من اللحم والعظم .. دون أن ينظر إلى عيني ليعرف أن روحي هي المريضة .. وليس هذا الجسد الذي أوسعه تعذيباً بالكشف عليه .

خرج وخرجت أمي معه .. وتركتني وحيدة .. لم تهتم بأن تجلس معي لحظة أخرى .. أو تأخذ يدي بين يديها لتسألني عما بي .. أو تطبع قبلة حنان على جبيني .

خرجت وتركتني وحيدة .. لو مت غداً لما اهتز أحد لموتى .. خطواتى لن تترك أثراً وكأنى كنت أمشى على ماء .. أنا لا أعنى شيئاً عند أحد..مات الشخص الوحيد الذى كانت حياتى عنده كل شىء..

مات هشام أخي وحبيبي ..

٥

وبعد ظهر اليوم التالى أخبرتنى أمى أننا سنستقبل زائراً فى المساء ... وأضافت أنه كان صديقاً لهشام .. كدت أقاطعها لولا أن قالت أنه صديق أخى ... أشاع كلامها بهجة حزينة فى قلبى .. الزائر كان صديقاً لأخى ، إذن هو صديق لى أنا أيضاً ..

وجاء مع المساء ..

تبادلنا الحديث فى رد سريع .. للحظة خيل إلى أنى أكلم أخى .. إن به من هشام الكثير .. شخصيته القوية .. نظراته النفاذة وكلامه الذى يصل به إلى إلى هدفه سريعاً .

بعد قليل تركتنا أمى صاعدة إلى الدور العلوى .. وفى أثرها خرج أبى ... ودهشت وتوقفت لحظة عن مواصلة الحديث فليس هذا تصرفاً طبيعياً منهما على الإطلاق .. ولكنه ما لبث أن عاود حديثه فبدد إحساسى بالغرابة ..

شعرت أنه صديق حميم فتحدثت معه بصراحة .. تكلمت عن إحساسى بالوحدة بعد موت هشام وعن رغبتى الهزيلة فى العمل .. تحدثنا كثيراً باستفاضة .. وتحدث هو عن طفولة غير سعيدة .

وعندما سلم ليخرج .. أحسست أنى لن أراه بعد ذلك وخيم على حزن مفاجىء ، ولكن عندما استدار ليهبط السلم إلى الحديقة .. فكرت فجأة أنه جاء

فى مهمة ما . ترى ما هى تلك المهمة التى جاء من أجلها ؟ وبسرعة لمح برأسى خاطر كالبرق . إنه طبيب نفسانى .. وشعرت فى الحال أننى جرحت وأنهم ضحكوا على .. وكيف كنت بهذا الغباء ؟ كيف سمحت لنفسى أن أحكى له باستفاضة عن حزنى الجليل ؟ عن إحساساتى الصغيرة العزيزة ؟ كيف صدقت أنه صديق لهشام ؟. الكذاب . الكاذبون جميعاً .

لقد أهانونى جميعاً . أهانونى .

بعد بضعة أيام أقام أبى حفل عشاء .. كعشرات الحفلات التى كان يقيمها قبل موت هشام والتى كانت قد ماتت بموته ..

ودعيت للنزول إلى الحفل .. وأثارت الدعوة دهشتى .. ماهذا الاهتمام المفاجئ لى ؟ وما وراء تلك الدعوة ؟

فى الماضى كنت لا أدعى للنزول ولم أكن أطلب ذلك .. كنت أفضل الانزواء فى أعلى السلم لأسترق السمع والنظر إلى الحفل فى أسفل .

الضحكات الصاخبة .. وانفصال الرجال عن النساء فى الحديث والجلسات كان يثير فى عقلى تساؤلات . لماذا هذا الانفصال بين الجنسين .. أبى ليس رجلا رجعياً بل هو تقدمى ليس فى رأسه أفكار الحريم .. وقد حيرنى إصرار أمى على الجلوس مع السيدات وحدهن .. ومع توالى الحفلات الماضية استطعت أن أفهم لماذا هذا الانفصال فى الجلستين .. لأن هناك أيضاً انفصالا بين العقليتين .. واختلافاً فى التفكير .. وتصادماً فى وجهات النظر ..

لبست ثوباً سماوياً باهتاً .. وتذكرت ملاحظة هشام عن تفضيلى للألوان الباهتة :

— لماذا تحبين الألوان الباهته يا نانا ؟

— لأن ذلك يجعلنى غير مرئية قدر المستطاع .

فأنا لا أحب العيون المحدّقة فىّ .. ولا أستطيع أن أرد لها نظراتها .. إن النظرات تثير فى حركاتى اضطراباً .. وتبعث فى رجفة .

وقفت لحظة أخرى أمام المرآة .. أنا ما زلت جميلة بل أزداد جمالا .. رغم حزن روحى ..

أخيراً استجمعت شجاعتى ونزلت الدرجات إلى أسفل .. أثار نزولى الحاضرين فاتجهت الأنظار كلها إلى .. وأطرقت أنا إلى الأرض وبدأ الاضطراب يسود حركاتى .

تقدم أبى فى تلك اللحظة .. أخذ بيدى وراح يقدمنى لأصدقائه .. ثم توقف عن تقديمى لبقية الضيوف . . ونظر تجاه الباب .. وأرسلت نظراتى تحبو وراءه كجرو ضعيف ورأيته يتجه إلى رجل طويل وسيم له بضع شعيرات بيضاء تجمل فودية وتزيده وسامة ومهابة .. خطا الرجل أيضاً ناحيتنا وسلم أبى عليه بكلتا يديه وقدمه لى :

- طاهر (بك) مدير الشركة المتحدة للطباعة والنشر . نجلاء ابنتى .

هذا إذن صاحب الشركة التى تعمل بها نادية .. الآن أفهم لماذا أحبته.. لأنه فى سن أبيها الذى كانت تحبه كثيراً .

تحدث الرجل كثيراً عن العمل وتكلم خاصة عن نادية .. أثنى عليها وقال إنها فتاة ذكية وتعمل بتفان وإخلاص .. وأضاف :

كم أريد فتاة مثلها .. لأن العمل يزداد .

هذا معناه مزيد من المال .. ها .. الكنز يكبر ..

- كنز ؟ وهل تعلم عنى هذه الصفة البغيضة ؟

غمز بعينه وأردف :

— أنت تعرف أين تذهب الكنوز .. فأنت طول عمرك محب للجمال .

أمسك أبى بذراعه وقال فى لباقة ..

— تعال ... عندى لك شرابك المفضل ..

ومضيا معاً ونسيانى وبدأت أغرق فى بحر المدعوين لتصدمنى أمواج أحاديثهم .

انزويت فى أحد الأركان وجاء عصام ابن خالتى ،وراح يثرثر معى دون اهتمام ، وراحت عيناه تدوران فى الحجرة تبحثان عن شىء آخر يثير الاهتمام .

اتجهت شريفة أخته ناحيتنا .. سلمت على بحنان .. وراح عصام يسألها عن حملها الجديد .. وماذا تتمنى أن يكون مولودها .. وقفت حائرة لا أجد كلمة أقولها مع أنه موضوع نسائى بحت .. حتى مع شريفة لا أجد ماأقوله لها والحديث مفتوح وأى كلمة سأقولها ستسمعها باهتمام .. ولوكانت كلمتى سخيفة .. ولكننى لم أتكلم .. ووقفت بينهما حائرة ضائعة .. أين دنياى ؟

انتشلنى صوت أبى من غرق ..

— ماذا تفعلين يا نجلاء .. كفى حديثاً مع عصام وشريفة .. وتعالى معى قليلا ..

أخذنى من يدى ومشى بى راجعاً إلى طاهر ..

— ما رأيك فى نجلاء يا طاهر ؟

لماذا يفعل بى أبى هذا ؟ لماذا يضعنى فى هذا الموقف السخيف ؟ ماذا سيقول ؟ الرجل سيجاملنى طبعاً ؟ وأنا أكره هذا النفاق .

— فيها من نادية الكثير .. ليس شبهاً .. لكن روحاً ..

غريب .. ظننت هذا الناشر النصف المتعلم لا يجيد الكلام .. ولكنه قال

شيئاً حقيقياً .. حقيقياً جداً .. ثم توقف عن متابعة حديثه ونظر إلى نظرة نفاذة واستدار محدثاً أبى عن فكرة طرأت على رأسه فجأة ..

– ما رأيك ياعبد الله أن تعمل نجلاء معى ؟ ستكون فى عيونى ،أنت تعلم ..

نظر أبى إلى وقال بدهشة ..

– ماذا تقول يا طاهر .. نجلاء تعمل ؟

ولكنى أحسست أن دهشة أبى ليست حقيقية .

وقاطعه طاهر ..

أتبخل بها أن تعمل معى ؟ قل لى ماذا تفعل بكل وقت فراغها ؟ تذهب إلى النادى ؟ تخرج مع صديقاتها ؟ وبعد ، العمل ليس عيباً .. المستقبل للعمل ثم إنها ستكون مع نادية صديقتها ..

قطع طاهر حديثه فجأة ونظر إلى باستغراب وقال :

– لماذا أنت صامتة يا نجلاء .. تكلمى قولى رأيك ..

ابتسمت ولم أقل شيئا .. وحلا لى أن أرقب اللعبة التى يلعبها الاثنان أمامى.

قال أبى وقد استسلم للحصار الوهمى من كلينا ..

– اتفقتم على .. ماذا أقول ؟ .. موافق ..

ولبثت برهة أفكر .. أبى لا يوافق بهذه السرعة وخاصة على أمر رفضه من قبل .. إن الموضوع يبدو مدبراً بين طاهر (بك) وأبى .. وهذه الحفلة لم تقم إلا لكى تأتى موافقة أبى عابرة وعادية .. وحتى لا يبدو أنه نزل عن كبريائه .. ولكن لماذا لم يختر لى عملا آخر ؟ ربما كان الطبيب النفسانى هو الذى أشار عليه بذلك .. ربما أراد أن أكون مع نادية وفى شركة مديرها صديقه .

٦

أيقظتنى فرحتى بالعمل مبكراً فى الفجر .. فوقفت أرقب الطبيعة فى جمال تغيرها المستمر .. تلاشى ظلام الليل فى نور الفجر رويداً .. وارتحلت خطواته السوداء تدريجياً تاركة الضباب يغطى المكان ويعطى الطبيعة ألوانها وأبعادها الحقيقية ويعيد للأشياء ظلالها .. واهتزت شجرة المشمش أمام الفيلا .. وتلألأ ثوب الندى بمأساته المنشورة عليها . وغردت يمامة وانطلقت روحى تغرد معها .

هذا أنا أيضاً أتغير .. واليوم ليس قديماً كأمسى الماضى ، إنه جديد وطفل .

ومر الوقت يقربنى من موعدى للذهاب لمقابلة طاهر (بك) ولكن داخلنى شعور غامض بالضيق والتردد .. والخوف .. أنا لاأريد أن أذهب .. سأظل هنا فى حجرتى الصغيرة أنظر إلى العالم الخارجى الكبير من وراء ستائر حجرتى الرمادية أسدلها وأشدها وقتما أريد . وماذا عن موعدى مع طاهر (بك) .. سأذهب فقط لأعتذر له .. دققت الجرس أطلب الشاى .. وفتحت الدولاب لأرى ما عساى أن ألبس وأنا ذاهبة للعمل .. هل أرتدى جوب وبلوز أم فستاناً كاملا ؟ هل أنتعل حذاء واطئاً أم بكعب عال ؟ هل أنثر البودرة على وجهى ، أم أتركه طبيعياً ؟

ترى هل كان هشام سيوافق على فكرة العمل ؟.. نظرت إلى صورته على الكومودينو بجوار فراشى أسأله بنظراتى عما يجيش برأسى من أفكار.. ولكنه ظل ينظر إلى نظرته الواحدة المبتسمة دون أن يعطينى جواباً .. إنه يتخلى عنى ويتركنى ضائعة لا أجد من أستشيره .. رفعت عينى إلى إطار الصورة وتذكرت ملاحظة نادية .

— نجلاء يجب أن تمنحى نفسك فرصة لنسيانه لتستطيعى أن ترجعى للحياة ..

لم أجب على كلماتها .. ولكن وضعى لصورته أمامى كان يعنى تراجعه المستمر فى ذاكرتى .. فقد راحت الأيام تطمس صورته تدريجياً من خيالى على الرغم منى .. وكنت محتاجة لصورته ليظل رسمه واضحاً أمامى لا يطمسه ضباب النسيان .

دقت الساعة معلنة التاسعة .. فلبست جوب وبلوز وانتعلت حذاء بكعب متوسط وأمسكت بحقيبة كبيرة نوعاً .. وظهرت فى المرآة أكثر شحوباً .. وقامتى القصيرة أطول مما هى فى الحقيقة .. وفى طريقى إلى الخارج مررت على أمى وقلت لها :

— ربما سأعمل اليوم يا ماما .

نظرت إلى أمى ولفت قرص التليفون الذى كان بين يديها ولم يبد عليها أنها سمعتنى ثم سألت ..

— ماذا كنت تقولين ؟

قلت :

— لا شىء مهم .

إنها لا تهتم بى .. أعمل أولا أعمل .. مسائل لا تعنيها .. وكأنى دائماً فى المكان الخطأ .. أو أنى الشخص الخطأ وأن هناك شخصاً آخر كانت تتمناه

بدلا منى ... كان يخيل لى أحياناً أنى جئت إلى الدنيا دون إرادتها .. وأنها كانت تتوقع مولوداً ذكراً فى مكانى .. ياإلهى .. ولكنى ابنتها ..

لم يكن لى ملاذ غير نفسى .. الكل كانوا غرباء .. وأنا أحاول عبثاً أن أكون على وفاق مع هذه النفس الجموح بداخلى .

نزلت درجات السلم مسرعة إلى الحديقة ووجدت السيارة فى انتظارى ، فتح لى مرغنى الباب فألقيت نفسى بها وأنا أرد بتحية الصباح .

مرقت العربة سريعاً فى شوارع الضاحية ثم عبرت الكوبرى إلى المدينة .. همست للسائق باسم الشارع ؛ بعد دقائق طويلة أصبحت هناك .. أمام مبنى جامد الملامح متعال لم يبادلنى ابتسام قلبى .. ولم يرحب بمعرفتى .. دخلت المصعد المزدحم وألقيت بعينى إلى الأرض .. فلم أستطع أن أرد للعيون نظراتها .. وخيل إلى أن الكل يستغرب وجودى ويسخر من وقفتى بينهم.

توقفت خيالاتى بتوقف المصعد فى الدور الخامس .. وخرجت من المصعد وخطوت إلى مدخل مكتوب عليه اسم الشركة بأنوار النيون الصغيرة.. وقفت فى المدخل حائرة أبحث عن نادية .. ثم اكتشفت بعد لحظة أنى أعوق الداخلين والخارجين بوقفتى فدلفت من أحد الممرات وسألت أحد السعاة عن نادية وأنا أخشى أن أكون قد أخطأت المكان كله .. وما لبث أن قادنى إليها فى حجرة صغيرة ملحقة بالغرفة الرئيسية للمدير.. استقبلتنى بالأحضان.

جلست على أول كرسى ألملم شتات نفسى .. وقالت نادية فى إشفاق :

— الأوتوبيس مزدحم ؟

وقبل أن أجيبها سارعت مستدرجة :

— نسيت أنك لاتركبين الأتوبيس .

وابتسمت ولم أقل لها إن هذا التوتر مبعثه مجرد صعودى فى المصعد المزدحم.
قلت لها بسرعة قبل أن أغير قرارى :

– نادية جئت لأعتذر لطاهر (بك) عن العمل .

قالت نادية فى غضب :

– إياك أن تفعلى ذلك ..

وأضافت بغيظ :

– كفى جبناً ..

وفى تلك اللحظة دخل طاهر (بك) إلى الحجرة واتسعت فى تلك اللحظة فرحة كبرى فى عينى نادية وخطا هو إلى مادا كلتا يديه فى ترحاب كبير .. واخترقتنى عيناه دون أن يرانى .. وسألنى عن الدى فى تودد .. ثم نظر إلى نادية وقال :

– نجلاء صديقتك من أيام المدرسة .. أليس كذلك ؟

قالت نادية فى تأكيد ..

– نجلاء أكثر من صديقة .. إنها ..

رحت أسمع نادية وهى تشرح صداقتنا فى كلمات .. وبدت بعيدة عنى فى تلك اللحظة .. فليست تلك الصفات هى التى تكون هيكل صداقتنا .. ولكننا دائماً عندما نريد أن نترجم العواطف إلى كلمات فإننا نسلبها الكثير من أعماقها .. نعم إن ما بينى وبين نادية مما لا يمكن وصفه هكذا فى سهولة.

سمعت طاهر بك يضيف إلى كلمات نادية ..

– هذا جميل جداً .. ستعملان سوياً .. وأرجو أن أرى نشاطاً كبيراً من حجرتكما الصغيرة هذه .

ومضى ببساطة إلى الخارج وكان هذا معناه أنه افترض قبولى العمل افتراضاً قاطعاً ..

وضايقنى هذا الافتراض.. وهممت بفتح فمى لأتكلم .. ولكنه كان قد اختفى ..

وضايقنى هذا الافتراض .. وهممت بفتح فمى لأتكلم .. ولكنه كان قد اختفى .. قالت نادية فى ثقة ..

— سنعمل معاً أنا وأنت هنا فى هذه الحجرة .. ولكن يجب أن تتعلمى الآلة الكاتبة .. وسنترجم الخطابات معاً ..

وراحت تتكلم وتتكلم .. وداهمنى أنا هلع من كلماتها .. وخيل إلى أنى سأحمل مسئولية الشركة كلها على رأسى .. وشعرت أنى أتضاءل وأتضاءل ولا أجد الثقة فى نفسى على تحمل المسئولية .. وشككت فى لغتى الفرنسية . وخيل إلى أنى نسيتها .. أو أنى لم أتعلمها على الإطلاق .. هممت أن أبدأ كلاماً أفهمها به أنى لا أستطيع العمل .. ولكنها استدارت وجلست على مكتبها الصغير .. وراحت تفتح الخطابات غير مصغية لكلماتى وناولتنى واحداً منها وهى تقول فى سخرية ..

— هيا ترجمى هذا الخطاب .. وأرينى أنك لم تنسى الفرنسية التى تعلمتها .. أمسكت بالخطاب وجرت عيناى على الحروف الفرنسية وعمل عقلى بسرعة .. وبدأت أقرؤه لها مترجماً .. ولكنها قالت فى شىء من الجد ..

— خذى ورقة وقلماً و اكتبى كلمة كلمة ..

أخذت ورقة وقلماً ورحت أكتب وأكتب .. وانتهى الخطاب فناولتنى آخر .. ثم رحنا نرتب بعض الدوسيهات فى أدراجها المرقومة .. وأخذتنى دوامة العمل فى رحاها ، ولم أفق إلا على نادية وهى تقول :

— هيا بنا يا عزيزتى .. هل أعجبك العمل إلى تلك الدرجة ؟ . الساعة الآن الواحدة ميعاد الانصراف.

— كيف مضى كل هذا الوقت ؟ الوقت عندى كان مشكلة لا أجد لها حلا..

انتابتنى فرحة وجرأة مفاجئة فقلت لها ..

— نادية سأعمل معك .. ولكن يجب أن تقرئى كل ترجمة أكتبها .. أنا غير مسئولة عن أى خطأ ..

نظرت إلى نادية بفهم وعطف .. وارتسمت ابتسامة كبيرة حنون على شفتيها أشعرتنى بالأمان والثقة وقالت :

— لا تخافى ستجدين العمل مسلياً .. وسهلا ..

رجعت إلى الفيلا وأنا أشعر أن الدماء التى تجرى فى عروقى أصبحت فجأة دماء شابة مليئة بالحيوية والعمل ..

وتناولت غدائى بشهية وحكيت لأبى عن العمل فغمغم ببضع كلمات باردة أطفأت فرحتى المشتعلة فى قلبى فعولت نظراتى إلى أمى .. ولكنى وجدتها مستغرقة فى تفكير بعيد كل البعد عن حديثى .. لم أجد أحداً أحدثه عن فرحتى . فآويت إلى حجرتى ونمت نوماً عميقاً خالياً لأول مرة من الأحلام المزعجة ..

ذهبت فى اليوم التالى إلى معهد لتعلم الآلة الكاتبة .. ثم إلى الشركة وهذه المرة لم أشعر بذلك الشعور الصبيانى الذى أحسسته أول مرة فى المصعد..

اضطرم فى قلبى شعور عميق بممارسة تجربة جديدة هى الحرية .. حرية اختيار عمل .. وحرية تعلم شىء جديد .. وحرية شق طريق جديد..

وفى حجرتى الصغيرة مع نادية جلست أرتب بعض الأوراق بإرشادها عندما قالت :

– المرتب سيكون صغيراً يا نجلاء خمسة عشر جنيهاً فقط ولكنه رقم مبدئى.. وطبعاً سيرتفع بمرور الوقت .

قلت لها :

– ولكن يا نادية ما قيمة المال .. انت تعرفين أنى لا أهتم به ..

شعرت فى الحال أنى أخطأت لأن عينى نادية أظلمتا .. وقرأت فى ظلامهما مقارنة سريعة بيننا ، هى تعمل من أجل المال وأنا أعمل لمجرد شغل وقت فراغى .. فهمت من صمتها أنها جرحت ولكنى لم أدر ماذا قول لأصلح هذا الخطأ الذى لم أقصده .

ومع هذا فقد فرحت فرحة كبرى لم أكن أتوقعها يوم أخذت أول مرتب لى .. نعم إن للنقود قيمة كبرى لم أحسها إلا عندما أخذتها ثمرة عملى وتعبى ..

٧

أصبح نزولى إلى العمل كل صباح يمدنى بتجارب جديدة .. الخروج إلى البلد ، وقفتى أمام المحلات .. مشاهدتى لوجوه الناس وهم يسرعون كل فى طريقه .. تساؤلى عما يمكن أن تكون مشكلة كل شخص من هؤلاء الناس الذين أراهم لأول وآخر مرة ثم يتلاشون فى الزحام .. لحظات الانبهار أمام الواجهات التى تعرض أثواباً نسائية وأحذية ملونة .. خروجى كل صباح فرحة .

كنت أشعر أنى أصبحت شيئاً مهماً .

ومضت الأيام مسرعة .. ثم تباطأت تدريجياً .. وأخيراً أصبحت تجر بعضها بعضاً .. وكان هذا معناه أن العمل الذى أحببته أول الأمر أصبح مللا يومياً أساق إليه كل صباح ..

فتحت باب المكتب ودخلت .. وتركته يذهب ويجىء نتيجة دفعة يدى .. وخطوت إلى حجرة العمل .. وما زالت أصداء حركة الباب تثبت أنى مررت من هناك منذ لحظات . آه لو استطعت أن أكون موجودة بشخصى وبكل انفعالى فى عملى دواماً ، إذن لما شعرت بهذا الملل .. ولكن ها أنا .. وحالى أصبح كحال بقرة تدور فى ساقية .. يمكن لأى بقرة أخرى أن تحل محلها .. لم أعد شيئاً مهماً .

٨

مر الشتاء على الكون كله ، وبدأت شجرة المشمش فى الحديقة تفقد أوراقها ،وبدت جذوعها العارية باردة مرتعدة فى حاجة إلى دفء الخضرة وحرارة الثمر وكانت بى رعدة مثل مابها .. وأصبح دخولى الفيلا يزيد إحساسى بوحدتى .. ويثير حنينى لأيام هشام .. فأروح أتذكره من جديد حياً يبعث المرح فى كل المنزل ،ولكن صورته كانت تشحب وذكرياته تبهت وحنينى له يتساقط كأوراق الخريف فى زوايا النسيان .

يا إلهى .. كل شىء يتبدل ، كل شىء يتغير ، كل شىء يضيع ..أيام عمرى تتسلل واحداً وراء الآخر .. مختلسة أجمل سنى عمرى .. ويداى — تتشبثان عبثاً بلحظات السعادة الماضية ولا سعادة هناك ..

لماذا يجب على كل شىء أن يذبل .. ؟

لماذا لا تورق السعادة إلا لتنطفىء ؟ .

ولماذا يجب علينا أن نموت ؟ .

تسلل ضوء النهار من فتحة الشيش المواربة . . وخطا ببطء داخل الحجرة وترك آثار أقدامه الواضحة على مخمل الظلام .. وتلفت يتجسس على فغمضت أنا بين وسائد الفراش .. كنت أكره النهار .. لأنه عيون وعيون تتلصص .. أما الليل فهو غطاء وخصوصية ..

احتجبت الشمس وراء ستائر السحاب .. وانسدلت غيوم كثيرة .. وتسربت حتى إلى نفسى فصبغتها بالانقباض .

انتزعت نفسى من سكون النوم إلى الحركة .. قمت أتمشى فى الحجرة ووقفت بجوار النافذة أنفض ضيق نفسى إلى الشارع .. وجلست بجانبها أتصفح كتاب الحياة المنشور أمامى .. وقلبى ثقيل .. كل شىء قديم فى عينى .. الناس أوراق صفراء مبتلة ملامحهم وأغلفة ثيابهم لا تحركنى .. أحس أننى سجينة هذا الأسلوب فى الحياة ..

إنى أنشد آفاقاً جديدة . أريد انتزاع نفس اللاصقة فى صمغ البيئة والخروج بها إلى دنيا أوسع وأكبر . لقد مللت سماوات بلادى الصافية . أريد سماوات أخرى قاتمة غامضة ووعوداً تثير فى الخوف والدهشة . أريد لقدمى أن تعرف أرضاً مختلفة . ماذا لو سافرت إلى (نهى) فى إنجلترا لأمضى بعض الوقت هناك؟ ولكنى سأرجع ثانيا .. وأنا أريد أن أذهب فلا أعود ..

ركبت العربة إلى الشركة .. فتحت الباب ودخلت .. الحجرة خالية .. لم تأت نادية بعد .. جلست على المكتب وأغمضت عينى ووضعت سبابتى على أجفانى وضغطت ضغطاً خفيفاً فبدأ يتولد عالم من الألوان والظلال .. عالم سحرى جميل .

ومضى الوقت .. وأحسست فجأة أنى مراقبة .. وأن عيناً ما فى الحجرة ترقبنى فتحت عينى فاصطدمتا بعينين تعيستين تنظران إلى .. بل هما أكثر من مجرد عينين . إنهما عالم كامل يحكى قصة حزينة .. ولأول مرة أدركت أن الحزن يمكن أن يكون شعوراً مارداً لا شعوراً خائفاً مستكيناً ، فالحزن بعينيه كان يضطرم أمامى بالتحدى والتمرد والتحفز وكأنه فى حالة دفاع دائم عن نفسه من مجهول يمكن أن يظهر فى أى لحظة ليسلب منه

روحه .. تعلقت عيناى بعينيه ولم أستطع سحب نظراتى منهما .. تساءلت .. هل هناك أحد يمكن أن يحزن أكثر مما حزنت أنا.. ؟

بدا لى لأول مرة حزنى كأنه لحظة غاضت فيها ابتسامة السعادة لحظة ثم ظهرت ثانياً .. أما الحزن فى عينيه فهو مدفون فى روحه .. مثقل بالثمار المرة .. بالقلق .. بالشك .. بالسخرية .. أحسست بشعور عجيب كأن خيطاً غير مرئى من الود ربط بيننا.. دارت تلك الأفكار بسرعة فى خاطرى ووجدته قد قام من مكانه واقترب منى .. وكأن شيئاً قد شده إلى .. سأل .

– هل سيتأخر المدير ؟

قلت وعيناى معلقتان بعينيه :

– لا . .

استدار ينظر من النافذة .. ودسست عينى فى بعض الأوراق أمامى ،ولم أرفعها ثانياً وإن كنت قد أحسست أنه عاد ينظر إلى من جديد.

دخل المدير بعد لحظات بضوضائه المعتادة تصحبه نادية وحسين الساعى حاملا بعض الأوراق .. ألقى إلى بتحية الصباح دون أن ينظر إلى .. وقد وقع نظره على الزائر .. ارتسمت ابتسامة كبيرة مزيفة على وجهه ومد يديه مصافحاً ..

– أحمد .. أهلا .. أهلا .. أين أنت يارجل ؟

همس الرجل ببضع كلمات لم أسمعها .. وقاده طاهر (بك) إلى مكتبه وأقفل الباب وراءه .. الرجل إذن كاتب وقد جاء ينشر شيئاً من إنتاجه عندنا .

أفقت من شرودى فوجدت عينى سارحتين فى وجه نادية ،وخيل إلى أن نادية تغمز بعينيها عندما خرج أحمد من حجرة المدير مرة أخرى .. شعرت به يبحث عنى ،ولكنى دسست وجهى فى كومة الأوراق أمامى ،وقد جبنت

وتغلب على ضعفى .. ولكنى حينما شعرت به يقترب من الباب رفعت وجهى فطالعتنى ابتسامة .. كان يبتسم بكل وجهه فى تلك اللحظة حتى عيناه الحزينتان ابتسمتا لى من خلال بكائهما الدائم بغير دموع .

وعندما رجعت إلى الفيلا فى ذلك اليوم .. صعدت رأساً إلى حجرة هشام وطوقت صورته لأؤكد له أنى لم أنسه ..

٩

فتحت عينى فى الصباح على يوم جديد قديم .. سأدق الجرس الآن أطلب إفطارى ثم ألبس وأخرج بالعربة إلى الشركة .. ككل يوم .. ككل يوم ..

ولكن ربما جاء هذا الكاتب الحزين .. ولكن ما شأنى أنا به .. ولماذا أضعه فى روتين حياتى كشىء جديد مهم .. والمكتب يمتلىء كل يوم بعشرات الرجال مثله ..

تركت هذا الخاطر مهملا فى زوايا فكرى.. وعاد يراودنى ذلك السؤال الخالد عن أبى وأمى . . للمرة الألف تساءلت لماذا لايهتمان بى ؟ . ترى هل يريانى حقاً وهل يعلمان أنى أقيم معهما فى نفس الفيلا . . لا أظن .. وهل حقيقة أنهما كانا ينتظران مولوداً ذكراً . . فى ذلك اليوم السعيد التعيس .. يوم أن جئت إلى الدنيا ؟ لكم تمنيت لهذه الأفكار أن يغرقها طوفان ..

ولكنها كانت تعش فى رأسى .. وكانت تتوالد ..

دخلت الحمام الملحق بحجرتى . . اقتربت من المرآة العريضة على الحائط وتأملت وجهى برهة .. ذلك الأنف الدقيق والشفتان الرقيقتان .. والعينان الواسعتان الحلوتان والصدر الناهد .. والخصر النحيل ..والساقان .

لكم أكره ذلك الجسد الجميل .. وأخجل منه .. إن أنوثته الفائرة

تعلن عن نفسها دون أن تأخذ رأيى .. وفى الشارع أسمع كلمات الاشتهاء تترامى حولى وأتمنى لوانشقت الأرض وابتلعتنى .. إن هذه الكلمات البذيئة تفزعنى وتشعرنى أنى شىء أقرب للخراف المعلقة من ذيلها تغرى بالأكل ..

استدرت عن المرآة حتى لا أهشمها .. وخطوت داخل البانيو وفتحت الدش ،وتركته يغمرجسدى ورأسى بدفء الماء المنساب فى رذاذ من الفتحات الصغيرة ،وكأنى أحاول أن أغسل جسدى من هذه الكلمات .. لففت نفسى فى البرنس وخرجت إلى حجرتى .. ارتديت ثيابى ووضعت معطفاً على كتفى ونزلت إلى الحديقة ..

تلفت أبحث عن زهرة أنظر إليها .. فلم أجد .. ولا وردة واحدة .. أين ذهبت الأزهار التى كانت لا تخلو منها حديقتنا على مدار السنة ..

هناك فقط فى طرف الحديقة تبتسم لى أقحوانة صغيرة عن خجل ..

وركبت العربة إلى الشركة ..

كانت نادية مشغولة بترتيب بعض الأوراق بين يديها وقالت عندما رأتنى :

– سأتغيب نصف ساعة يا نجلاء .. سأنزل إلى المطبعة .. أبحث عن بعض الملازم يريد طاهر أن يطلع على بروفاتها ..

قلت :

– ولكن هذا ليس عملك يا نادية ..

وأضفت بشىء من السخرية ..

– أخشى أن أجدك غداً أمام ماكينات اللينوتيب .

ردت بجد ..

– أنا أحب أن أعرف كل شىء فى الشركة ..

كانت نادية مدلهة فى حب طاهر (بك) الطويل الوسيم المزيف .. وفى شركته .. وفى كل ما يعمله .. وكنت أنا أرى الزيف فى كل حركة من حركات هذا الرجل.. فى ابتسامته .. فى كلماته ..كنت أراه يستعرض وجوده أمام الجميع ، ويتحرك وكأنه يمثل ..

تركتنى نادية وخرجت .. وأرسلت أناعينى تتجو لان فى الحجرة .. وتركتهما تستقران على الدولاب المعدنى فى جانبها .. الأثاث كله معدنى .. أجزاؤه تنحرف فى صرامة عمودية .. ليس به رقة الخشب وانسيابه وثنياته ومرونته .. لم أكن أحب هذا الأثاث المعدنى..

فتح الباب .. فانقطع تسلسل تفكيرى .. رفعت عينى فوجدت أحمد واقفاً أمامى .. همس بتحية الصباح وسأل عن طاهر (بك) .. ثم جلس..

انتابتنى فجأة موجة من العطس .. فأخرجت المنديل بسرعة ووضعته على أنفى .. ولابد أن منظرى كان يدعو للضحك لأنه ابتسم .. وشدت ابتسامته ابتسامتى فضحكت وقال هو :

— يلزمك فيتامين (ج) .

قلت :

لم أصب بالبرد سوى هذا الصباح فقد استحممت وخرجت ..

استغربت نفسى لماذا أحكى له عن سبب بردى .. هذه أول مرة أتحدث فيها ببساطة إلى شخص غريب ..

مرت لحظات صمت طويلة .. وخيل إلى أنه يبحث عن كلمات يدخل منها لحديث معى .. أخيراً وجد الكلمات ..

— هل تحبين القراءة ؟

أجبت دون أن أفكر :

ــ نعم

ارتسمت فرحة على وجهه وعاد يسأل :

ــ ما هى الكتب التى تحبين أن تقرئيها ؟

صمت .. حيرنى سؤاله .. فعاد يقول :

ــ هل تقرئين كتبا على الإطلاق ؟

قلت فى حيرة متزايدة ..

ــ فى الأيام الأخيرة لم أقرأ كتباً .. ولكنى أقرأ بعض المجلات والصحف.

أحسست أنه صدم .. ولكن الأمل عاوده مرة أخرى فقال :

ــ ماذا إذن تقرئين فى الصحف ؟

عدت أقول فى خجل :

ــ فى الحقيقة لم أكن أقرأ فى المدة الأخيرة ..

ضج بالضحك فجأة وقال فى مرح :

ــ اعترفى أنك لا تقرئين على الإطلاق .

أصابتنى عدوى مرحه فقلت :

ــ أعترف أنى لم أقرأ فى المدة الأخيرة ، ولكن ليس معنى هذا أنى لا أحب القراءة

ابتسم ونظر إلى من جديد ، وأحسست أن لعينيه الحزينتين أيد تتحسس وجهى برقة وكان لحزنهما سحر ورهبة ..

فتشت أبحث فى رأسى عن شىء يرفع من قيمتى أمامه .. وتذكرت أنى أرسم فقلت على الفور .

ــ أنا أرسم

شعرت فى الحال أنى أتخذ من نفسى موقف هشام .. موقف الأصغر وأنى أنتظر الآن أن يربت على رأسى مشجعاً .. خجلت من نفسى كما لم أخجل طول

حياتى ، وتمنيت لو أختفى من أمامه ، ورد هو فى ود ..

ـ حقاً هذا جميل .. إذن أنت تقرئين معارض كثيرة ؟ أقصد تشاهدين معارض كثيرة ..

عدت أهز رأسى نفيا ..

قال فجأة بدهشة وبجرأة :

ـ قولى لى .. ماذا تفعلين بكل ساعات عمرك ؟

ـ أنا أعمل ..

ـ فقط ..

ـ نعم .

ـ أنت لا تعيشين ..

ـ أنا لاأحب الحياة .

ـ كيف ؟

ـ أنا مضطرة فقط لأن أحيا .

ـ مضطرة ؟!

ـ لقد وجدت فى الدنيا .. فأنا مضطرة للحياة ..

ـ أنت غريبة .. كل هذا الجمال والثقافة وتكرهين الحياة ؟! ماذا رأيت أنت من الدنيا لتكرهيها ؟ ماذا رأيت ؟

ظللت أنظر إليه فى دهشة وقال هو بعد لحظة :

ـ أنا آسف .

ـ لماذا تأسف ؟

– لأنى خرجت عن شعورى..

– أنا الآسفة لأنى أخرجتك عن شعورك..

– لننس ذلك ..

نظر إلى ساعته وقال يداوى ثورته واضطرابه ..

– عندى موعد هام فى الجريدة يجب أن أذهب .. هل أستطيع أن أترك أصول قصتى عندك لحين حضور طاهر (بك) ؟

– طبعاً تستطيع..

– شكراً ..

ومضى سريعاً إلى الباب .. واختفى بين ضلفتيه .. وتمنيت لولم يذهب .. ولو استمر فى الحديث معى إلى مالانهاية .. إن فى كلامه صدقاً وصراحة .. إنه شخص حقيقى غير مزيف .. داهمنى هلع مفاجئ ألا أراه ثانياً .. فهولم يقل متى سيأتى ..

دخلت نادية إلى الحجرة وشيء من الحزن فى ملامحها ..قالت فى كلمات متقطعة :

– طاهر تكلم فى التليفون .. لن يأتى .. سيسافر إلى الاسكندرية لبعض الأعمال .

وبقيت أصول القصة معى ... وسهرت الليل معه .. مع كلماته .. إنه يعبر عن حبه للدنيا بصورة غريبة .. كأنه يكرهها.. إن بين كلماته اتهاماً .. وأصابع تشير إلى أخطاء عديدة بتصميم ساخر عنيد .. والخوف من الموت يبرز عن خلال سطوره .. ويبسط سيطرته على الكلمة .. إن فى كلماته ثورة مستترة .. وهو يعبر عن كآبة .. وتعاسة مقيمة فى نفسه .. وبدأت لأول

مرة أفكر بدون أنانية فى شخص آخر غير ذاتى .. وأحسست أنى أريد أن أفعل شيئاً من أجله ..

مع أخى كنت آخذ موقف الأصغر .. الذى ينتظر حناناً واهتماماً دائماً.. كنت آخذ دون أن أعطى .. ولكنى الآن أريد أن أعطى .. أريد أن أمد كلتا يدى لأخرج هذا الرجل من كهف تعاسته .. وكان هذا شعوراً جديداً على كل الجدة .

١٠

فى الصباح صحوت نشطة مرحة .. لأنى سأراه .. سيأتى لمقابلة طاهر ، وفى نزولى الدرجات إلى الحديقة .. وفى ركوبى العربة إلى الشركة كانت بى لهفة لرؤيته وسماع صوته ..

وفى حجرة العمل ظللت أنتظر .. وأنتظر دون جدوى .. مر الوقت يقترب من الظهيرة دون أن يحضر .. وأخيراً لم أجد بداً من القيام والدخول إلى حجرة طاهر لأعطيه القصة ..

سألنى ..

- هل قرأت القصة يا نجلاء .. ما رأيك فيها ؟

- تخيم على كتاباته الكآبة ويبدو وكأنه يتهم ..

ولم ينتظر بقية كلامى .. سارع يقول :

- نحن نحب أن نرى الآخرين متهمين لنهون جريرة الأخطاء على أنفسنا

أحسست أنه فهم خطأ ما أراده أحمد .. إن أحمد يهدم ليبنى لا ليهون الخطايا أمام الآخرين ..

أردف طاهر ..

- إنه كاتب متميز لا يمكن تجاهله .. إنه يخطف البصر .. ويثير فيك التحدى.

انت إما معه أوضده .. ولكنك لا تستطيعين أن تتجاهليه .. أوتقولى لا بأس به .. عموماً كتبه تأتى بإيرادات كبيرة ..

ويبدو أن دهشة بالغة ارتسمت على ملامحى فقد أسرع طاهر يقول :

ـ هذا ليس كلامى .. هذا كلامى النقاد .. كل الذى يهمنى أنا الإيراد ..

كانت الساعة القاسية وراء طاهر تعدو ولا تترك فسحة من الوقت كى يأتى فيها أحمد ..

رخص وقتى فجأة .. وأصبح وقتاً عادياً .. واكتشفت أن انتظارى لأحمد هو الذى كان يقيم زمنى ويعطيه قيمته ومعناه ..

صرفنى تفكيرى فى أحمد عن الرد على كلام طاهر . تركته وخرجت إلى حجرتى ،ورغم اليأس من حضوره فقد جلست أنتظر من جديد بأمل ..

١١

مضى يوم .. وآخر دون أن يأتى .. وفكرت أن أسأل نادية عما جرى بشأن الكتاب .. ولكنى خفت أن تلاحظ اهتمامى .. وشعرت أن شيئا حميماً وخاصاً جداً بدأ يربطنى بأحمد .. شيئاً لا أريد أن أقوله لأى إنسان .. ولا لنادية صديقتى الوحيدة ..

وفى يوم بادرتنى هى قائلة .. من باب سرد أخبار المكتب..

ـ كتاب أحمد إبراهيم سينزل المطبعة غدا ..

سألتها بوجل ..

ـ هل اتفقا نهائياً ؟

ـ لقد اتفقا تليفونياً على كل شىء ..

تليفونياً .. لماذا .. ؟ لماذا لم يأت هو بنفسه ؟ هل قلت كلمة ضايقته هل بدر منى شىء أساءه ؟ ولكن لنفرض ذلك هل كان سينقطع عن مباشرة طباعة كتابه من أجلى ؟ .. لا .. لابد أن شيئاً ما شغله ..

١٢

ومضيت أنا فى درب حياتى المألوف.. لا جديد .. لقد حفظت كل دقيقة من دقائق حياتى الخاصة فى البيت وفى المكتب .. حتى تكشيرة حسين الساعى التقليدية التى يريد أن يثبت بها لنفسه أنه يحيا .. أبى فى دنياه التى صنعها ودخل يعيش فيها .. وأمى فى حزنها الدائم .. وخطابات متباعدة من (نهى) وبعض صور لها فى الريف الإنجليزى .. مكالمات صغيرة من بنات عمى بالإسكندرية .. وزيارة سريعة من شريفة ابنة خالتى .. لا شىء جديد يدخل حياتى .. لا شىء على الإطلاق ..

ومر شهر .. وانتهت المطبعة من طبع الكتاب .. وأخيراً .. أخيراً جداً أتى .. كان أكثر شحوباً وعيناه أعمق حزناً .. وكان يبدو ضعف عمره ..

وجاء إلى يهدينى نسخة من الكتاب ..

همست :

– مبروك .

– افتحيها .

ففتحتها .. ووجدت بداخلها إهداء : « إلى القارئة التى لا تقرأ ، والرسامة التى لا ترسم .إلى نجلاء » .

رفعت وجهى إليه .. وابتسمت للسخرية فى كلماته .. ودهشت من

أين يأتى بهذا المرح والحزن يملأ نفسه .. لابد أن الفرحة كانت تطل من عينى وتفضح سرورى بلقياه .. فقد وجدت صدى لفرحتى فى عينيه .

سألت :

– لماذا لم تأت لترى كتابك وهو يطبع ؟ أليس جميلا أن ترى الحروف التى كتبتها فى هدأة الليل وحدك..الحروف التى كانت مجرد ضباب من الأفكار تتحول إلى أسطر مرصوصة وإلى كيان متكامل فى كتاب ؟

ابتسم وأجابنى ..

– لقد تحولت إلى أديبة تجيد صوغ الكلمات..

وبقى فى عينى انتظار ليجاوب على سؤالى

قال أخيراً وشىء من الأسى يدفع بنفسه على رغمه إلى كلماته ..

– كنت مريضاً ..

شعرت فى الحال بشىء فى داخلى يتمزق شفقة عليه .. وأحسست، من صوته الآسى أنه ليس مرضاً عادياً .. لكنى أبعدت هذا الخاطر عن رأسى وحول هو الحديث وجهة أخرى » .

– والآن كرسامة .. ما رأيك فى الغلاف ؟

– إن سواده يدعو لليأس .

قال .. بهدوء مدرس يشرح لتلميذه :

– بل يدعو للأمل .. ألم تلاحظى هذا الشعاع الذى ينير الغلاف ؟ .

– ولكنه شعاع هزيل .

– ككل أمل .

– كنت أحب أن تحدثنى عن أمل كبير لا يحد ..

– هذا أمل الخياليين .

— أتستكثر الأمل على الناس ؟

— أنا أبحث دائماً عن الممكن .. ولا أحب أن يترك الناس أنفسهم لآمال واسعة غير ممكنة التحقيق .

تذكرت فى الحال عشرات الأشياء التى أبدأ فيها ولا أنهيها .. عشرات المفارش تنتظر غرزة النهاية .. واللوحة المشدودة على الحامل لم تنته.. شعرت أن تلك الأشياء حية تصرخ فى كى أكمل خلقها ..

— أرجو أن تقولى لى رأيك فى الكتاب .. بعد قراءته ..

ولم أقل إنى قرأته .. كنت فى حاجة لأن أقرأه من جديد لأبحث عما خفى عنى من تفكيره .. قلبت صفحات الكتاب فقرأت بعض العناوين « حطام » « نداء » « أثمن شىء » .

قلت :

— أثمن شىء ؟؟

— الحياة .. أنا أقصد بأثمن شىء .. الحياة ..

— الحياة أثمن شىء ؟

— ألست من رأيى ؟

— أنا أرى أن الحياة لا تستحق أن نحياها .. وأن نعانى كل هذه الآلام بسببها وأنا ببساطة لاآبه لها ..

— وتتكلمين بعد هذا عن الأمل ؟

— لقد فقدت شخصاً عزيزاً .. فقدت أخى .. ففقدت الدنيا أهميتها بالنسبة لى ولم أعد آبه بشىء ..

وندمت بسرعة .. لماذا تكلمت هكذا .. لماذا كشفت له عن ذاتى .. ولكنه قال بصوت عميق صادق بدد ندمى :

– لقد مررت أنا بمثل هذه الفترة وتجاوزتها إلى إدراك أوسع للحياة .. ويجب أن تتجاوزيها أنت أيضاً .. فهذه الفترة أخطر مراحل الحياة .. وأسميها مرحلة تجاوزاً لأنه من الممكن أن تتجمدى فيها فلا تستطيعين انتزاع نفسك من هذا السحر الشرير أبداً .. اللامبالاة .. وساعتها تكونين قد خسرت كل شيء .. حياتك ..

أطبق الكتاب بمرح وقال ..

– ما رأيك لو بدأت هذا الاهتمام برؤية فيلم جديد .. ؟ هل رأيت الفيلم المعروض الآن عن الرسام تولوز لوترك .. ؟

قلت وأنا مازلت أفكر فى كلامه ..

– لا لم أره ..

– ما رأيك لو رأيناه سوياً ..

وقفت حائرة لا أعرف بماذا أجيب .. وأخيراً قلت ..

– لأشكرك على هذه الدعوة .. ولكنى مصابة ببرد .. وكنت أفكر أنى سأقضى فترة بعد الظهر فى الفراش ..

– أما زال عندك نفس البرد منذ شهر ؟

قلت فى ابتسام .

– لا غيره .. ذهب برد وجاء برد آخر ..

– يجب أن تهتمى بنفسك أكثر من ذلك .. ما رأيك لو تركت لك تذكرة على الباب .. لو أحسست أنك بخير تستطيعين أن تأتى .. ؟

أعجبنى اقتراحه فوافقت ..

وامتلأ قلبى بفرحة كبرى .. حتى أنى أردت أن أتحدث لكل إنسان أقابله

عن فرحتى . وعلى الغداء لم أستطع كبح نفسى من التحدث مع أبى فقلت..

ـ بابا أتذكر الكاتب أحمد إبراهيم ؟

قال بلا اهتمام ....لا .

ـ الذى حدثتك عن كتابه الذى جاء يطبعه عندنا ..

ـ آه أتذكر الآن .

ـ لقد انتهى طبعه وجاء اليوم ليرى النسخ .

ـ حقاً ؟

ـ نعم .. وأهدانى نسخة .

ـ جميل .

وشعرت بسخافة حديثى .. وعدم إصغائه لى ، فسكت..

١٣

دخلت حجرتى بعد الغداء .. إلى عالمى الخاص ذى الجدران الثلاثة .. والجدار الرابع الذى تكونه نافذة بعرض الحائط مسدلة الستائر .. نظرت إلى فراشى وإلى اللوحة الصغيرة المعلقة فوقه .. ثم انسابت نظراتى إلى الدولاب وتلمست جوانبه .. واستقررت أخيراً فوق أحد المقعدين اللذين يكونان ركنى المفضل .. الركن الذى أجلس فيه مع نفسى ..

إن بينى وبين تلك الأشياء صلات صداقة وحب .. أكثر من الصلات التى تربطنى بأبى وأمى .. إنها توحشنى عندما أغيب عنها وهى تثرثر إلى بحكاياتها الصغيرة أحياناً .. إننا أصدقاء وهى تحدثنى بلغتها الخاصة لغة الأشياء .. وأنا أصغى إليها وأفهمها ..

جلست على أحد المقعدين لأتخذ قراراً ثابتاً بينى وبين نفسى . هل أنى هذه العلاقة ؟ هل ذهابى معه إلى السينما صواب أم خطأ ؟

إن يده أول يد تمتد إلى بدفء الصداقة .. بدفء المشاركة.. وقد هزتنى لمسة الحنان تلك .. عندما قال إنه سيترك لى التذكرة عند الباب ذهبت أولم أذهب .

وبدت لى التذكرة فى تلك اللحظة صك حرية . حريتى فى أن أذهب أولا أذهب . حريتى أن أقبل صداقته ومعرفته أولاأقبلها .. وبدا هذا شيئاً

بديعاً يتيحه لى موقفى أن أكون حرة .. حرة فى اختيار الأشخاص الذين أريد أن أعرفهم .. وحرة أيضاً فى أن أرفضهم . . ولكن هل ذهابى معه صواب أم خطأ ؟

لم أدر لسؤالى جواباً ولا فى عينى هشام . . المحبوستين فى الإطار المذهب. ظلت هى الأخرى حائرة رغم الثقة التى نبتت فى داخلى بعد اشتغالى والتى كانت تزداد نمواً يوماً بعد يوم ..

فى الرابعة كنت قد قررت أن أذهب إليه .. وخلق لى قرارى آلاف العوالم السحرية .. ولم أستطع النوم .. ولاحتى الرقاد مفتوحة العينين فى الفراش .. قمت أرتب الأشياء التى سأذهب بها إليه .. فتحت الدولاب وأخرجت ثوباً رمادياً .. ولكن لا .. أنا لا أريد ألواناً باهتة بعد اليوم .. أنا أريد لوناً إيجابياً .. لوناً يؤكدنى ويوجدنى أمام عينيه.. أنا أريده أن ينظر إلى ويعرف تماماً أنى معه أراه وأسمع له ..

فى السادسة والنصف نزلت الدرجات إلى الحديقة لآخذ العربة ولكنى أحسست وأنا أدخل إليها أنى لست أهلا للثقة التى اكتسبتها نتيجة عملى .. داخل شعورى إحساس بالذنب فشوش على فرحتى بلقاء أحمد ..

كنت ألوز بظلام العربة وأشعر أنى حائرة فى صواب أو خطأ تصرفاتى هذه .. والمجتمع حائر حيرتى .. وأمام باب السينما همست..

— هل من تذكرة باسمى ؟

نظر إلى الرجل وشبح ابتسامة خبيثة يمرح فى عينيه ..

— نعم ..

وأعطانى التذكرة .. وصعدت الدرجات وأنا أشعر أن عينيه تخترقان

ظهرى وتنخران فى عظامى .. قادنى العامل الآخر على ضوء مصباحه الصغير إلى مكانى جلست دون كلمة والخوف يمسك لسانى ..

وهمس هو ..

ـ أهلا بك يا نجلاء .

غمغمت بكلام لاأذكره .. وبدأت أهدأ رويداً .. وتلفت حولى فى المكان .. أرسلت عينى إلى الشاشة ولكنى ظللت بعض الوقت لاأرى ولاأفهم ما يدور أمامى .. وأخيراً أخذتنى مأساة الفنان إلى القرن الماضى .. إلى حى الفنانين حيث رسم لوترك أجمل لوحاته التى خلد بها ملهى الطاحونة الحمراء..

وعندما مددت يدى أودعه .. طلب رقم التليفون ليطمئن على من البرد الذى ألم بى .. فأعطيتها له والخوف والفرح يمتزجان فى قلبى ويولدان شعوراً مركباً يبهج نفسى .. قال مؤكداً ..

ـ سأكلمك

فى طريقى إلى الفيلا فكرت .. إن مجرد الجوار إلى جانب هذا الشخص متعة كبيرة .. وشعرت أن شخصيتى تولد من جديد فى داخلى .. وتنمو..

١٤

قضيت الصباح أتقلب ضجرة فى الفراش .. ماذا أفعل بكل ساعات يومى .. أنظر إلى نفسى فى المرآة أمامى .. أتقلب فى الفراش.. ما أسخف ساعات الفراغ هذه ولكن لماذا لا أقرأ.. ليس عندى شيء أقرؤه ..كيف وغرفة المكتب جدرانها مكتبات .. ربما لن أجد مايعجبنى فى كتب أبى الجامدة .. مهلا .. هناك مكتبة هشام المليئة بعشرات الكتب .. ولكن حجرته مغلقة بالمفتاح ..

وحركت الفكرة أرجلى فغادرت الفراش .. أخذت سلسلة المفاتيح من الدولاب وخرجت إلى الممشى .. مررت على أطراف أصابعى.. إلى حجرته.. فتحت الباب ودخلت ووجدت (هشام) هناك .. فى كل أشيائه وجدت (هشام) الطفل فى أرجوحته وفى سيفه الخشبى ووجدت (هشام) الصغير فى مجموعة طوابعه .. حتى الزهور المحنطة فى ألبومها الخاص. تفوح منها رائحة الزمن .. ووجدت (هشام) اليافع فى بنادق الرش .. وفى السنانير الأتوماتيكية وقباقيب الانزلاق .. وصوراً عديدة تخلده فى تلك اللحظات.. واقفاً فى غرورالذكر حاملا صيده من البط على كتفيه .

وأخيراً (هشام) الشاب . الطالب الجامعى .. وصوراً عديدة أخرى له وهو يلعب المتوازيين .. أشياؤه كلها جمعتها أمى ورتبتها بعناية فائقة فى تسلسل وكأنها قصة حية تتكلم ..

مات (هشام) شاباً .. فهو لن يشيخ أبداً .. مات فى قمة تفتحه ونضجه.. مات كما يجب أن يموت الإنسان .. مات قوياً ..

أخذت بضعة كتب من المكتبة .. ورجعت ثانياً إلى حجرتى .. وجدت لى أصدقاء جدداً فى الكتب .. أصدقاء لا يخذلوننى .. بل يمنحوننى آفاقاً واسعة رحبة وثراء عريضاً .. مقابل أن أقضى بعض الوقت معهم .

أعطتنى القراءة فرحة غريبة كئيبة ونشوة قلقة .. وأصبحت أحاول أن أرى الدنيا بعيون مختلفة .. وأخذت أكتب أماكنها ضمن محتويات حجرتى.. أقمت لها مأوى صغيراً لطيفاً ، دولابا أخذ مكانه بين الكرسيين .. فى ركنى المفضل .. بجوار ستائرى.

فى الرابعة تماماً تكلم أحمد .. سأل عن صحتى وتحدثنا عن الفيلم وعن الفن وفاجأتنى آراؤه عن الحياة .. وجعلتنى أناقضه وأتحداه .. وشعرت أنه فرح بهذا التحدى .. وفهمت أنه يحب لعبة المناقشة ..

كنت قد قررت أن أبقى فى اليوم التالى أيضاً فى البيت.. ولكنى لم أستطع. فضلت الذهاب للعمل ..

فى الغد إجازتى .. ماذا سأفعل غداً .. فلأذهب إلى شريفة ابنة خالتى وأقضى الصباح معها .. ومع ابنتيها الجميلتين .. طلبتها تليفونياً وأخذت منها موعداً للغد ..

وفى الرابعة طلبنى أحمد .. وأخذ منى موعداً لنتفرج سوياً على معرض جديد فى متحف الفن الحديث .. ولم أتذكر موعدى مع شريفة إلا بعد أن أقفلت التليفون ..

كيف نسيت موعدى مع شريفة بالمرة .. كيف ؟ لقد ألغت مكالمة أحمد كل الناس وكل مواعيدى مع الآخرين ..

صحوت فى الصباح على أصوات عصافير تشقشق .. تقلبت فى الفراش الوثير ومددت يدى فأدرت مفتاح الراديو .. فانساب لحن فرنسى ملأت أنغامه الحجرة ،فتحت عينى .. وتقلبت ثانياً فى الفراش .. وألقيت نظراتى إلى ركن من أركان الحجرة .طالعنى إطار دقيق أطلت منه أبيات شعر كانت قد أعجبتنى من زمن فعلقتها ..

ثبت أقدامك بثقة وثبات فوق أرض الحياة ..

وكن مخلصاً وحنوناً ..

وافرح لأصغر بهجة تصادفك ..

بذلك تظل نفسك شابة غنية آملة..

لا تترك شيئاً يضيع منك ..

واجعل من تجاربك الماضية ..

نوراً جديداً يضيء لك حاضرك ومستقبلك..

بدأت أقرؤها كأنى أراها لأول مرة .. وبدأت أفهم معانيها كشيء جديد كل الجدة .. لا شك أن وجودها المستمر أمامى أعدمها وألغاها وأفقدها كيانها فى تفكيرى .

فى هذا الصباح نبتت بقلبى فرحة .. هناك شخص سينتظرنى .. وربما بقلبه لهفة إلى لقائى..

ثم عاد يداهمنى نفس الشعور بالذنب .. دخلت حجرة أمى لأقنع نفسى بأنها راضية عن تصرفاتى .. أعطتنى أمى مصروفى الشهرى دون أن أطلبه .. شعرت أنى لاأريد أن آخذه وأنى لا أتقبل عطاءها .. أنا أكسب الآن نقودى بتعبي ..

تركتها ونزلت .. ولم تسألنى إلى أين .. فمنذ أن اشتغلت أعطانى عملى حرية ..

نزلت الدرجات إلى الحديقة ورفعت رأسى إلى السماء وبدا اليوم جميلا رغم الشتاء.. وشعرت أن الهواء النظيف الذى ينفذ إلى رئتى قد أرسل خصيصاً من أجلى ولم يشمه أحد قبلى ..

ركبت العربة إلى المتحف .. وخطوت إلى المدخل المفروش بالخضرة ثم إلى الساحة الصغيرة الظليلة ووجدت أحمد واقفاً يتأمل النقوش العربية.. اقتربت منه وهمست .

— صباح الخير ..

استدار وأشرق وجهه كله .. واحتضنتنى العينان الحزينتان بود وقال..

— صباح الخير ..

أمسك يدى ببساطة بين يديه وأبقاها معه .. وصعدنا السلم سوياً إلى أعلى. خطونا إلى الداخل .. وأخذنا نتفرج على اللوحات .. ألوان وظلال .. وعوالم مختلفة خلقها فنانون عديدون ..

وقفت أمام لوحة تمثل درجات سلم تصعد إلى أعلى .. وتقع على درجة منها بقعة شمس .. وعلى أخرى ظل أخضر .. مجرد درجات سلم ولكنى أحببت اللوحة .

لقد نجح الفنان فى أن ينقل إلىّ حبه ووده وذكرياته إزاء تلك الدرجات ومررنا على لوحة .. وأخرى .. ووقفنا أمام صورة لامرأة مجردة متكئة على مسند .. واللوحة مأخوذة من زوايا متخفضة فبدت ضخامة فخذيها ونفور صدرها مثيرين.. ومن آخر اللوحة أطل رأس صغير متناه فى الصغر ..

كان إحساس الفنان كله باللحم والجسد . فلم ير فى المرأة سوى جسد .. أنثى فحسب .. بلا عقل .. أوهو لايأبه لعقل المرأة كثيراً .. غاظتنى اللوحة.. وأحسست أنى أريد أن أغطيها بأى شىء .. فلم تكن صورة جمالية .. ولكن الجنس كان يصرخ من خلال خطوطها الهوجاء .. شعرت أن كل النساء عرايا وأننا مجرد أداة لذة للرجل .. أذلتنى اللوحة فكرهت أنوثتى أكثر . قلت إنى لا أحب هذه اللوحة .. التفت أحمد إلى بدهشة .. أردفت قائلة.. إنه يستعرض جسد المرأة برخص وهو يبتذل معنى الجمال الذى وضعته الطبيعة فيها ..

قال أحمد :

– بالعكس .. أنا أرى هذا جميلا ..

– أنا لا أعترض على عريها ولكن على الطريقة التى استغل بها الفنان هذا العرى .

سكت أحمد لحظة ثم قال ..

– أتخجلين من جسدك يا نجلاء.. ؟

أجبت كاذبة ..

– أنا لا أخجل منه .

– بل تخجلين .. وتنظرين إلى رغباتك كشىء حقير أدنى منك ..

تلون وجهى فجأة بحمرة الغضب والخجل .. قلت ..

– ليس عندى رغبات ..

قال ببساطة :

– كيف .. أنت إذن تقتلين إحساساتك قبل أن تولد..

صعقت .. كيف يكلمني أحمد هذا الكلام الغريب .. فكرت أن أتركه وأخرج .. ولكنه عاد يبدى إعجابه باللوحة فغاظني أكثر وقررت البقاء لأدافع عن رأيي ..

قال :

– أنا أرى هذا العرى المثير جميلا .. كالرقص البلدى مثلا .. إنه فن مثير جميل .. يعجبني ..

وجدت نفسى أدخل فى مناقشة لم أكن أتخيل أنى يمكن أن أتكلم فيها ..

قلت :

– تستطيع أن تسميه رقصاً . . ولكنك تخطئ لو أسميته فناً .. إن أى فن يفتعل الإثارة لا يكون فناً ..

ثم أضفت ..

– وأنا لاأحب أن ترقص المرأة لتثير الرجل .. إنه يعبر فقط عن المرأة .. وحتى ليس عن المرأة اليوم .. بل عن المرأة أيام الحريم .. لقد نزلت المرأة اليوم إلى شتى الميادين ونحن الآن فى الشارع والأتوبيس والسينما مع الرجل.. لماذا لاتوجد الرقصة التى تجمع بين الرجل والمرأة .. وتشركهما فى وحدة فنية متكاملة ؟

قال فى إصرار :

– الرقصة الفردية للمرأة لن تموت .. حتى لووجدت الرقصة المشتركة التى تتكلمين عنها .. لأن المرأة كانت وستظل أبداً معنى كبيراً يعبر عن الجمال والتناسق والحب.

قلت فى دهشة :

- كيف تتكلم عن المعانى الكبيرة المجردة ومن لحظة كنت تمجد الحب والجنس .

- أنا لاأفصل هذه عن تلك.. إن المعانى المجردة تعبر عن نفسها عن طريق العقل .. وعنه ينبثق نبع الحب والفن .. والجنس يعبر عن نفسه عن طريق الجسد وأنا لا أحتقر الجنس .. فهو رباط يقوى علاقة الرجل بالمرأة ويحفظها وينتج عن طريقها حياة متصلة دائبة .

فكرت لحظة ثم عدت أقول :

- أتعلم أنه لن يكون هناك تساوبين المرأة والرجل مهما تكلمنا ..

قال فى دهشة لصيغة اليقين التى تكلمت بها :

- لماذا ؟

- لأننا للآن لم نساو المرأة بالرجل إلا ظاهرياً فقط .. أما فى الحقيقة فالمرأة ما زالت متاعاً للرجل .. بلا رأى ولا حق فى أن تختار الحياة التى تروقها للآن عندما يتحدث بعض الرجال عن نسائهم لا يقولون سوى البيت أو الجماعة . إن مجرد ذكر اسم المرأة يذكرهم بالفراش والمتاع .. إنهم يعتبرون اسم المرأة عورة يجب سترها .. إن رجالنا مازالوا يعيشون بعقلية هارون الرشيد وسط مظاهر مدنية القرن العشرين .

- لماذا تصبين اتهامك كله على الرجل ؟ . إن المرأة لا تخلو هى الأخرى من مسئولية فهى تتصرف فى أغلب الأوقات تصرف الحريم .. ثم إن الرجل أذكى وأكثر ثقافة من المرأة ،وهوفوق ذلك يعولها ماليا والمرأة تريد الحرية بلا ثمن وهى قابعة فى بيتها والرجل يحارب فى كل الميادين .. وهذا غير معقول .. إن الحرية التى تطالب بها المرأة يجب أولا أن تدفع مقابلها تحرراً اقتصادياً واستقلالا عن الرجل .

– هو أكثر ثقافة نعم .. ولكنه ليس أكثر ذكاء .. إنه فقط أخذ الفرصة.. فرصة التعليم .. وفرصة التجربة أما المرأة فقد حرمت لأجيال طويلة من التعليم ومن التجربة ..

أهمل أحمد ملاحظتى وقال بسخرية ..

– ولكن يوم أن تفوز المرأة بتلك الحرية التى ولولت من أجلها سنين عديده ستجد أنها دفعت أكثر مما يجب .. وستتمنى أن لو ترجع إلى عهد الحريم الذى يضايقك اسمه .. لأن كلمة الحرية التى تحبينها لها وقع جميل على الأذن ، ولكن عندما تمارسينها ممارسة كاملة ستجدينها شيئاً مختلفاً كل الاختلاف عما كنت تعتقدينه.. إن الحرية مسئولية .. مسئولية أن تتحملى صواب وخطأ تصرفاتك ، مسئولية إعالة نفسك وتنسيق ميزانيتك .. الحرية عمل وفى النهاية سوف يسلبك العمل أنوثتك .. ويجعل منك نصف رجل ونصف امرأة ..

قلت بإصرار :

– ولكنك تؤمن بعمل المرأة وتحررها اقتصادياً عن الرجل ، ألم تقل هذا ؟

– نعم .. هذا يقتضيه العصر الحديث .. ولكنى دائماً أصل بالنتائج إلى آخرها والنتيجة هى ذلك الجنس الثالث من أنصاف الرجال وأنصاف النساء .. وقفت غاضبة أنظر إليه .. إنه يرفض الحلول ويحبسنى داخل كلامه الدائرى ويسخر من حرية المرأة .. إننا لا نتفق .. إننا نتعارض ونتصادم انتقلنا إلى لوحة أخرى تمثل شارعاً ووجدته يقول :

– ربما تعجبك تلك اللوحة فليس فيها ما يثير .. ولكنها لا تعنى عندى شيئاً لأنها لا تصور سوى الواقع وأنا أحب الفنان أن يضع بعداً جديداً من عنده غير مجرد النقل الحرفى للواقع .

كان فى لهجته كثير من التحدى .. وأمام لوحة أخرى غامضة وقفت أفكر وأحاول أن أفهم تلك الخطوط المتشابكة الملتفة بعضها ببعض حتى لكأنى قد أصبحت خطاً فى اللوحة وظلا ولوناً وفهمت ماأراد أن يقول الفنان .. كان يقول بأسلوب الخط وبلغة اللون .. إننا كيان واحدمتشابك متداخل .. إننا ملتصقون ببعضنا البعض . النور ملتصق بالظلام ..والنساء بالرجال .. والبنات بالصبيان . فى مجتمع واحد يعتمد كله على بعضه .. الحياة فيها وحدة مشتركة ..

صارحته بما فهمت..

فقال :

— برافو ..

ألقت إليه دهشة ..

فقال :

— أنا أعنيها أنا لم أفهمها إلا منك ..

فى الحال مات عدائى له .. وماتت رغبتى فى أن أتحداه .. وعادت صراحته وبساطته تأخذنى فى أحضانها ..

خرجنا من المعرض وكانت يدى من جديد بين يديه .. وقفنا لحظة نتحدث ورأيت مرغنى يلف بالعربة متجهاً إلى ناحيتى .. أوقفها ونزل يفتح الباب .. نظر أحمد إلى العربة دون أن يفهم أنها لى..

قال بغيظ :

— هؤلاء الأغنياء العاطلون ذوو العربات الفارهة .. الذين يمصون قوت الشعب ، تلفت إلى الناحية الأخرى يبحث عمن سيركب العربة ..

شل عقلى عن التفكير أمام المفاجأة .. وتمنيت فى تلك اللحظة لولم تكن العربة ملكى ..

ولكن مرغني الغني العجوز كان قد فتح الباب في تلك اللحظة ونظر ناحيتي وقال :

– تفضلي يا ست ها تم..

نظر إلى أحمد دون فهم .. وألقيت أنا عيني إلى الأرض .. عرضت أن أوصله ولكنه قال :

– شكراً سأمشي على قدمي ..

ركبت العربة كعادتي عندما أكون وحدي بجوار السائق .. نظرت في المرآة أمامي .. ووجدت صورة أحمد تتراجع بسرعة ورائي واضعا يديه في جيوبه وماشياً ببطء وهو سرحان .. ترى ماذا كان يظنني ؟ . فتاة عاملة تعمل من أجل كسب المال . ما أنا سوى مدللة تملأ فراغ وقتها بعمل لا تحبه كثيراً .

في دخولي إلى الفيلا وجدت أمي جالسة في المدخل . قالت عندما رأتني :

– ستأتي عمتك وابنها اليوم ..كوني على استعداد لاستقبالهما في السابعةأومأت إليها موافقة .. وصعدت الدرجات إلى حجرتي .. وهناك في عالمي الخاص جلست أتساءل .. هل أنا مذنبة لأني أنتمي لأسرة ثرية بل فاحشة الثراء ؟ ما ذنبي أنا ؟ .. ولماذا يكره أحمد الأغنياء ويسميهم مصاصي دماء .. شيء لم أفهمه في كلمات أحمد .. وإن أحسست إحساساً داخلياً أنه على حق .. وبدا لي أنه في فقره وكفاحه من أجل كتبه وعمله في الجريدة واقف على أرض شريفة..

في منتصف السابعة.. وقفت أمام المرآة لأرتدي ثيابي ورأيت جمالي كله وشبابي مطبوعاً أمامي على صفحة المرآة .. ولكنه لم يبهجني ولم يفرح قلبي.. وجاءتني كلمات أحمد (كل هذا الجمال والثقافة ولا تحبين الدنيا.. ماذا رأيت

أنت فيها) ماذا رأيت؟.. ترى ماذا رأى هو من الدنيا.. ؟لابد أنه رأى الكثير. إن فى ملامح وجهه بجانب القلق ثباتاً .. وفى نظرة عينيه شخصاً واثقاً من نفسه وآخر حائراً ولكن ليس فى عقله ذلك السوس الذى ينخر فيه مثل عقلى .. لو أستطيع أن أكون مثله واثقة من نفسى؟ لو أستطيع ؟ لوأستطيع ؟.

فى تمام السابعة نزلت الدرجات إلى أسفل لأستقبل عمتى .. وابنها عادل .. استرعى انتباهى شيء جديد فى نظرة عادل إلى .. إنها تشبه إلى حد كبير نظرة أحمد .. نظرة هى خليط من الاهتمام والتعجب .. إن النظرتين يشوبهما شيء من التعجب .. لا أدرى له سببا ..

بعد قليل نزلت أمى وتبادلت مع عمتى نفاق القبلات .. وجلسنا نثرثر عن أزياء الشتاء .. تكلمت عمتى عن فراء الفيزون الجديد الذى اشترته .. وتكلمت أمى عن العربة الجديدة التى اشتراها أبى .. وتكلم عادل موجهاً الحديث إلى ولكن بلهجة فيها شيء من السخرية ..

— كيف يسير العمل معك ؟

فى الحال فهمت مبعث تلك السخرية .. فأنا أصادف مثلها فى عملى .. فى لهجة كل الرجال الذين أقابلهم .. إنها لهجة تقول لى من خلال الحديث : ما الذى أتى بك هنا ؟ . هنا ميدان الرجال .. ارجعى من حيث جئت إن مكانك البيت ..

وانتابنى ما ينتابنى دائماً عندما أسمع تلك اللهجة.. انتابنى التحدى. قلت بلهجة مماثلة .. وبنفس كلماته :

— وكيف يسير العمل معك أنت ؟

تغيرت النظرة بسرعة فى عينيه كأنها إشارة المرور .. تحولت فجأة من

اللون الأخضر إلى اللون الأحمر . وأغاظه أنى أسأله سؤال الند للند ..

رد بسرعة :

— على ما يرام ..

ثم غير الحديث ..

— هل رأيت شيئاً من برامج الأوبرا ؟

هززت رأسى نفياً فقال بدهشة :

— كيف ؟

والتفت إلى أمه ..

— هل تتصورين أن نجلاء لم تر شيئاً من برنامج الأوبرا .. هذا الموسم ؟

انتقلت الدهشة من عينى الإبن إلى عينى الأم .

— كيف لم ترى الأوبرا هذا الموسم؟ لقد رأينا كل البرنامج تقريباً .. إن لنا بنواراً محجوزاً باستمرار كل ليلة .

ثم التفتت إلى أمى قائلة :

— كيف ؟

ردت أمى وظلال من الحزن تخيم على نبرات صوتها :

— منذ موت هشام وأنا لا أهتم بأى شىء .. لقد هدتنى وفاته ..

سقط صمت ثقيل فى الحجرة .. لم يبدده سوى دخول عبده السفرجى بأقداح القهوة . وعندما سلما ليذهبا سأل عادل أمى :

— هل أستطيع أن أصحب نجلاء إلى الأوبرا غداً ؟

قالت أمى بترحاب كبير :

— نعم يا ابنى تستطيع بكل تأكيد .

ولم أجد سبباً للاعتراض فوافقت .ولكنى لم أستطع منع نفسى من التفكير فى غرابة هذا الاهتمام المفاجئ بى .

فى التاسعة كان عادل ينتظرنى فى البهو ليصحبنى إلى الأوبرا.. وكانت تلك أول مرة أخرج فيها مع رجل بموافقة أبوى .. ظللت أتساءل عما وراء تلك الموافقة من أهداف .والعربة فى طريقها إلى الأوبرا .. ولم أجد جواباً على سؤالى حتى أفقت على عادل وهو يفتح لى باب العربة لأنزل .. رفعت عينى إلى وجهه فوجدت نظرة عينيه مختلفة عن نظرة أمس . إنه لا يرى فى تلك المرة سوى أنثى .. كائن جميل فحسب .. دمية حلوة.. ووردة يزين بها ذراعه عند الخروج .. وضايقتنى النظرة .. إنها تبخس قدرى وتسخر من شخصيتى ..

أجلسنى عادل على الكرسى ووضع يديه على كتفى ليخلع الفراء ولكن يديه استقرتا أكثر مما يجب ،وشعرت بهما تضغطان كتفى برفق ثم تحملان الفراء إلى المشجب .

وارتفعت موسيقى تشايكوفسكى الموحية فرسمت آلاف المعانى والأخيلة وارتفعت الستار .. بدأت أتابع العرض.. التعبير بالجسد كله فى رقصة .. كل أصبع ، كل ارتعاشة كانت تترجم معنى أوعاطفة .. تدريجياً سمعت ضوضاء هامسة بجوار أذنى .. التفت فوجدت عادل يفتح فمه ويقفله يشرح لى ما أفهمه جيداً .. دون حاجة إليه .. إذن عادل لم يتغير رغم تلك السنين التى قضاها فى الخارج ، ما زال هو نفس الشخص الذى يفترض غباء الآخرين ويفترض أيضاً أنه الوحيد الذى يفهم فى الدنيا .. نعم مازال عادل هو هو لم يتغير .. رفيق الطفولة .. المشاكس .. وصديق هشام العبيط .. لم أطلب منه أن يسكت ، تركته يشرح مادام هذا يعجبه ومادمت لاأسمع له.. ألقيت بانتباهى كله إلى المسرح ورحت أحلم .. *

١٥

فى الصباح نادتنى أمى إلى حجرتها .. قبلتنى ونظرة الاهتمام تتسع فى عينيها وتكبر .. أجلستنى بجوارها على الفراش وهمست :

— كل سنة وانت طيبة يا نجلاء اليوم عيد ميلادك .. لقد أصبحت عروساً فى التاسعة عشرة .

ارتعشت فى قلبى فرحة .. لأن أمى تذكرت يوم مولدى .. تذكرتنى .. دست يدها بجانبها وأخرجت علبة زرقاء من القطيفة وفتحتها .. خطف بصرى بريق حجر ماسى يلتمع وتوقف عقلى عن التفكير .. أنا أحب الماس ، إنه يبرق ويضىء كأنه يحتوى على عشرات المرايا الملونة .. ومع ذلك يظل بياضه نقياً شفافاً .. فريداً جميلا فى تعاليمه . مددت يدى وسحبت الخاتم .. ودسسته فى إصبعى وأخذت أحرك يدى فى كل اتجاه عقلى شريط الشمس المتسلل من النافذة فتضاعف لمعانه .. وكون على جدران الحجرة دنيا من البريق ، سمعت صوت أمى يقول :

— هل أعجبك ؟

أجبتها .. ورأسى يدور مع البريق ..

— جداً ..

— ما رأيك فى عادل يا نجلاء ؟

قلت دون اهتمام ...

— لطيف .. لماذا ؟

— لأنه طلب يدك للزواج .

قلت فى دهشة .

— للزواج ؟

ومضت برهة من الصمت .. إذن هذا الاهتمام المفاجئ ليس لى .. عشرات المرايا الملونة التى تلتمع فى الخاتم الماسى ليست لى .. نظرة الاهتمام فى عينيها ليست لى .. كل ذلك من أجل الرجل الذى تقدم إلى فأثبت أنى جديرة بكل هذا لأنى حزت إعجابه .. كل هذا لأن رجلا تقدم إلى يمنحنى وسام اسمه .

خلعت الخاتم من إصبعى ووضعته فى علبته وقمت من جوار أمى ..

قالت فى دهشة ..

— لماذا تركته ؟ .

قلت .. فى ثبات :

— أنا أعمل ولن أستطيع لبس هذه الثروة فى يدى كل يوم ..

قالت موضحة ..

— ولكنك لن تعملى .. ستتزوجين وتصبحين مرأة عادل ..

— ولكنى لم أقل إنى وافقت ..

— ولماذا لا توافقين ؟

— لأنى ببساطة .. لا أريد أن أتزوج .. أنا أحب عملى ..

ضاقت عيناها وهى تتفرس فى كأنى شخص جديد لا تعرفه .. وقالت فى صوت حاولت أن تخرجه هادئاً .

— لاترفضى بسرعة .. عادل غنى ذومركز .. وهو فوق ذلك ابن عمتك .. وهو أولى بك.

— أولى بى ..

زادتنى الكلمة غضباً .. أولى بى كأنى قطعة أرض .. وهو أولى الناس بشرائها .. تركت الغرفة وخرجت حتى لا أنفجر فيها ..

دخلت إلى حجرتى وأنا أحاول أن أتصور نفسى زوجة عادل ولكنى لم أستطع. أنا أرفضه .. وليس رفضى هذا وليد اللحظة ..

كيف قبل أن أتزوج منه اليوم وأنا لم أحبه قط .. لا أيام الطفولة عندما كان يأتى ليلعب مع هشام .. ولا عندما بدأت أتفتح وأصبح أنثى .. كان هو دائماً متكبراً معتزاً بنفسه لأنه ينتمى إلى الجنس الأعلى والأقوى .. إلى الرجال .. وكان دائماً ينظر إلى ككائن أدنى منه .. ولن أنسى ذلك الحوار الذى دار بينه وبين هشام فى أول يوم العيد الكبير .. كنت قد صحوت مبكرة فى ذلك اليوم .. وصعدت إلى السطح لأرى ذبح خروف العيد .. كنت فرحة لمظاهر العيد كلها .. لثوبى الجديد الجميل وحذائى ذى الكعب.. ولإحساسى بذلك التغيير الجديد الذى طرأ على جسدى وروحى .. بأنوثتى.. وقفت بجوار هشام أتفرج على الجزاروهو يمسك الخروف الكبير من قرنيه ويطرحه على الأرض .. وفجأة سمعت صوت عادل يقول :

— حتى فى الحيوانات للذكر فقط الشرف فى أن يذبح ليكون ضحية .. أما الأنثى النعجة فلا ..

تدافعت الدموع إلى عينى بسرعة فأخذت أعض شفتى السفلى بعنف وأحسستأنى رخصت ورخصت .. إلى درجة أقل من الحيوان ..

الولد أولا ثم البنت .. ولكنى مع هشام لم أكن أشعر بذلك ..

انبثق فى عقلى فجأة نور باهر أضاء تفكيرى كله بمعان جديدة .. هل أحببت هشام حقا ؟ أم أنى كنت منساقة فى حبه كانسياق كل من فى البيت؟ كيف فاتتنى هذه الحقيقة البسيطة الواضحة ؟ الآن فقط أشعر أنى لم أكن سوى تابعة لهشام .. كل سعادتى الصغيرة كانت من فضلات سعادته .. مباهج البيت كلها كانت بسببه ومن أجله .. رحلات الصيد وضرب النار ترتب حسب إجازات هشام ، الصور والكاميرات وآلة سينما تشترى من أجل هشام .. لقد عرف هشام مباهج عديدة لم أعرفها .. وظللت أنظر إلى الأشياء العادية التى يصنعها كما لوكانت معجزات .. لا يحق لى أن أشارك فيها ..

الآن فقط أعلم أنى كنت أخادع نفسى طوال تلك السنين ..

نعم .. الحب كله كان من أجله هو .. الرجل .. ولأنه مات .. مات بموته البيت كله .. لا حب .. لا حنان من أجلى .. لا شىء يفرحنى ويدخل البهجة إلى قلبى .. قلبى الوحيد الحزين .

والآن .. ماذا يريد أبى وأمى أن يفعلا بى .. إنهما يريدان أن يتخلصا منى .. يريدان أن يزوجانى . ولكن لا لن أتزوج عادل .. لن يشترينى بثرائه ومركزه .. ولن يأخذنى لأنه أولى الناس بى .. مازالت أمامى السنين رحبة واسعة .. وأيام عمرى ثروة أملكها وحدى.. وسأنفقها كيفما أحب.. أناحرة وسوف أتحمل مسئولية حريتى .. وأخطاء تلك الحرية ..

١٦

وجاء أبى يكلمنى فى موضوع الزواج .. سمعت سعاله التقليدى وراء الباب . جاءت اللحظة الحاسمة .. جاءت اللحظة التى يجب أن أواجه فيها أبى كفتاة ناضجة وليس كابنة تابعة له .. هذه لحظة دفاعى عن حريتى .. وعن كيانى كله .. فتح الباب وظهر وراءه بقامته القصيرة الممتلئة . . أشعل سيجارة وقال بلهجة طبيعية .

— نجلاء .. كونى على استعداد لاستقبال خطيبك اليوم .. سيمر فى السابعة لتنزلا إلى الجواهرجى سوياً لانتقاء الشبكة ..

إنه يضع قرارات حاسمة لتنفذ بلا مناقشة .

— لن أستطيع النزول إلى البلد يا بابا..

— هل أنت مريضة ؟ إذن غدا . سأعطيه موعداً لغد صباحاً ..

استجمعت كل شجاعتى وكل قوة شخصيتى ..

— بابا . أنا لا أريد أن أتزوج عادل ..

اضطرب .. اهتز السيجار بين أصابعه .. إنه مضطرب هو الآخر ، إننا متساويان إذن .. إنه ليس أقوى منى .. إننا ندان .. ولكنه قال بنفس نبرات صوته الصارمة التى تشيع الاضطراب فى أعصابى..

— بل ستتزوجين ..

بدأت الدموع تخذلني .. تظهر في عيني .. تفضح خوفي .. لا .. لا .. يجب أن أعتقل تلك الدموع وراء أجفاني .. يجب ألا أسمح لها بالظهور .. أنا أحتقر هذا السائل المالح الذي لا يعبر إلا عن الضعف والخذلان .. حتى مع أبي لا يجب أن أظهر ضعفي .. أشعر بشعور الصيد الذي تطبق عليه الشباك .. فرت دمعة بلهاء من وراء أسوار الاعتقال ..

قال يغريني ..

— أيتها الصغيرة البلهاء .. سيكون لك بيت جديد وعربة خاصة تقودينها بنفسك .. ورحلة إلى بلدان أوروبا .

— أنا لا أريد أن أتزوج ..

— لماذا يا حبيبتي ؟

أنا حبيبته ؟ لأول مرة أسمعه يقولها ..

لماذا لم يظهر لي كل هذا الحنان إلا الآن ؟. سكت لحظة ثم تمتم في رقة ..

— نجلاء ، تعالي هنا ، قربي مني ..

أمسك بيدي وشدني إليه .. أجلسني بجواره ورفع وجهي .. وقال :

— نجلاء .. انظري إلي .. لماذا لا تنظرين إلي .. ألست أنا بابا ؟

صحيح هو بابا .. رفعت عيني ببطء إلى عينيه .. وكانت أول مرة أنظر فيها إلى أبي مباشرة وعلى هذا القرب .. إن عينيه لونهما عسلي رائق وبهما تساؤل وفيهما طيبة .. أنا أحب تلك الطيبة .. وأكره هذا التساؤل .. أخذ رأسي بين كتفه وراح يربت ظهري بحنان زائد وأحسست أني أريد أن أغفو أو أبكي إلى حد الإغماء .. وبعد فترة طويلة قال في مزاح هامس ..

— هل نمت يا نجلاء ؟ .

رفع رأسي وشد أذني مداعباً .. كان أبي الحقيقي .. أبي الذي لم أعرفه

إلا اللحظة .. أبى الذى يداعبنى ..

ابتسم .. وابتسمت وقال :

— لا داعى للكلام فى هذا الموضوع .. إذا كان هذا يضايقك الآن فلنؤجل ذلك .. هه .. ؟

— بل أريد أن نتكلم الآن .. بابا أنا لا أحب عادل .

وسكت لحظة وأطرق إلى الأرض مفكراً ثم قال فى هدوء :

— ومن قال لك إن كل من يتزوج يحب قبل الزواج .. إن الحب يأتى بعد الزواج وبالمعاشرة والمعاملة الطيبة .

قلت وكأنى أكلم نفسى :

— ولكنى أريد شخصاً أحبه ..

— هل تحبين شخصاً بالذات ؟ . إذا كان الأمر كذلك .. وكان شخصاً مناسباً فأنا على استعداد أن أزوجه لك ..

فوجئت وفكرت .. هل أنا أحب أحمد .. ؟ لا لم أصل إلى درجة الحب بعد .. إنها بداية قد تصل إلى الحب .. ولكنها بداية فحسب ..

أجبت :

— لا .

— إذن .. ليس هناك شخص بالذات .. وعادل لائق ومناسب ومركزه ممتاز.

سكت لم أعرف بماذا أجيبه .

أكمل هو :

— هل أقول حلا ؟ ما رأيك فى فترة خطوبة تعرفينه فيها أكثر..

— ولكن عادل ليس غريباً يا بابا .. أنا أعرفه حق المعرفة ..

— لا .. لا .. لقد سافر إلى الخارج ولاشك أن الغربة قد غيرته كثيراً ..

ربما كنت فى حاجة إلى اكتشافه من جديد ..

لم أجد ما أقوله .. فسكت .

ــ ابنتى حبيبتى .. هاتى قبلة ..

وقبلنى على خدى ومضى خفيفاً إلى الخارج .. وقد سلب منى موافقة لم أكن أظن أنه يمكن أن يأخذها بهذه البساطة ..

١٧

وبدأ عادل يزورنا .. ويغمرنى بفيض من الهدايا التى لا أحتاج إليها ، وبدأ يتحدث عن دراسته فى الخارج وعن أمريكا .. وعن جامعة هارفارد ، وكان يتحدث ساعات طويلة .. ولا أجد أنا كلمة أقولها .. ولا شيئاً أريد أن أسأل عنه ..

وفى يوم ظل يتحدث ويتحدث ثم توقف عن الكلام وسأل ..

ــ نجلاء .. أليس عندك ماتقولينه لى .. لماذا هذا الصمت المستمر؟ .

ــ أبداً ..

ــ هل ضايقلك حديثى عن أمريكا .. لنغير الموضوع ..
سكت لحظة ثم استطرد دون تفكير :

ــ ما رأيك فى السينما .. ما رأيك فى الأفلام المصرية ؟

ــ بعضها سخيف .. وبعضها لا بأس به ..

ــ من أحسن ممثلة .. هنا ؟

ــ فاتن ..

ــ أتعلمين أن تمثيل فاتن هنا يعتبر لا شىء فى أمريكا ؟

ــ لماذا ؟ . إنها ممثلة تفهم طبيعة أدوارها تماماً كأى ممثلة أمريكية شهيرة

– لا .. لا .. لورأيت الاستديوهات هناك .. والممثلين الحقيقيين لأصابك الذهول.

– إن ما ينقصنا هى الإمكانات وليس الفن .. عندنا فنانون ولكن الفقر فى الإمكانات لا يظهر مواهبهم ..

– نعم .. هنا عندكم جهل وفقر ..

– عندنا ؟ وماذا عندك أنت .. هل تبرأت من مصريتك ؟

– أنا لا أخفى عنك أنى أفكر بالفعل فى السفر إلى أمريكا واصطحابك معى للعيش هناك بعد الزواج .

– ومن قال لك إنى سأوافق ..

– ولماذا لا توافقين ؟ هذا بلد لا يقدر أبناءه ولا يضعهم فى موضعهم الصحيح .

– وما هو موضعك الصحيح ؟

– ها أنا مثلا قد عدت من الخارج بعد سنوات دراسة .. ماذا يريدون أن يعطونى كمرتب ؟ . ملاليم .. تخيلى .. تعالى انظرى إلى أمريكا ، إنهم هناك يعطون الأساتذة ألوفاً من الدولارات ..

– لم يمض على حضورك سوى شهور وتتكلم هذا الكلام .. لماذا لا تعتبر مصر اليوم كأمريكا أمس عندما هبط عليها الرواد الأول .. لماذا لا تكون رائداً ؟

– ما كل هذا الحماس ؟ لم أكن أعلم أنك وطنية ..

هل كنت متحمسة .. ؟ ولكنه كان إحساسى الحق .. وأعتقد أيضاً أنه إحساس أحمد لوعرض له نفس الأمر..

لماذا يقفز أحمد دائماً إلى عندما أشعر أنى على حق .. أوعندما أتلفت حولى داخلياً باحثة عن سند يؤيدنى ؟ .

ـ إذا أردت أن تسميها وطنية فليكن .. وماذا عن وطنيتك أنت ؟

ـ ليس عندى وطنية .

ـ هكذا ببساطة ؟

ـ هكذا ببساطة .. ولننته من هذه المناقشة السخيفة .. هيا نخرج ..

ـ لاأريد الخروج ..

ـ هيا .. هيا .. سنذهب إلى الأوبرج .. هناك نمرة جديدة ستعجبك..

ـ لا أريد الخروج ..

ـ لماذا تعاندينى ؟

ـ أنا لم أعاندك .. أنا فقط لا أريد الخروج ..

ـ هذه معاندة .. الزوجة يجب أن تطيع زوجها .. هذا هو المفروض ..

ـ ولكنى لم أوافق بعد على أن تصبح زوجى..

ـ موافقتك ليست مهمة .. لقد وافق أبوك وأمك .

ـ إذن تزوجهما ..

ـ أنت وقحة ..

ـ وأنت لا كرامة لك .

ودخلت أمى على صوتنا الذى تعالى حتى وصل إلى حجرتها .. جاءت تجرى .

ـ ماذا بكما يا أولاد .. ماذا حدث ؟

ـ أيعجبك أن تقول نجلاء إنى لا كرامة لى ؟

ودون أن تسمع أمى بقية كلامه ودون أنتعطينى فرصة للرد صاحت فى :

ـ نجلاء كيف تقولين لخطيبك هذا الكلام ؟

— أولا هو ليس خطيبي .. ثم أنا لم أقل له هذا الكلام .. إلا بعد أن قال لى إنى وقحة ..

وبهتت أمى ..

— كيف تتكلمان بهذه الألفاظ .. نجلاء هل هذا يليق بك .. عادل هل هذا كلام رجل لم يمض على حضوره من أمريكا إلا أشهر معدودات ؟

— أمريكا .. أمريكا .. أمريكا .. لم تصنع له شيئا .. عادل هو عادل الذى أعرفه تمام المعرفة .. ربما زادته أمريكا أنانية على أنانيته ..

وجريت أصعد السلم إلى أعلى قبل أن أضعف .. وأجهش بالبكاء .. وجاء أبى ثائراً مهتاجاً ..

— نجلاء ما هذا الكلام الذى سمعته من والدتك ؟

— أى كلام ؟

— كيف تشتمين عادل ؟

— أنا لم أشتمه ..

— شتمته .. وأكثر من ذلك كنت قليلة الأدب ..

— أنا لم أكن قليلة الأدب ..

— وماذا تسمين البنت التى تقول لخطيبها اذهب فتزوج أبوى .. هل تقول هذا الكلام بنت مهذبة ..

— . . ؟

— لماذا تصمتين ؟

وأطرق لحظة مفكراً ثم عاد يقول فى حيرة ..

— أنا أريد أن أفهم ما الذى يدور فى رأسك ..

إن ما يدور فى رأسى ملكى .. ملكى ولاحق لأى مخلوق فيه .. حتى أبى نفسه ..

وأسكرتنى الفكرة وكدت أضحك من فرط السعادة .. حينما قال أبى باستسلام فجأة ..

– لن أكرهك على هذا الزواج .. إذا كنت لا تريدينه .. لتكن هذه مشيئتك ..

١٨

وعدت للعمل من جديد ..

دخلت المكتب وكانت نادية جالسة إلى مكتبها والنافذة نصف مفتوحة والعمل دائر ككل يوم .. أحسست أنى أحب هذا المكان .. قامت نادية واحتضنتنى بفرحة وقبلتنى وقالت بشوق ..

ــ نجلاء .. حمد الله على السلامة .. ماذا فعلت ؟

ــ رفضت .

ــ حقاً .. ؟كيف ؟ أنا فى شوق شديد لأن أعرف التفاصيل ..

دق جرس التليفون فانشغلت نادية عنى وإن ظلت الفرحة تلمع فى عينيها من أجلى ..

كانت نادية فرحة بانتصارى .. ونازعتنى رغبة شديدة فى أن أبوح لها بحقيقة عواطفى ..

انتهت من حديثها التليفونى والتفتت إلى ..

ــ هـه ..

ــ قولى لى ألم يأت أحمد إبراهيم إلى المكتب أثناء غيابى ؟

ــ أتى مرة وهو على موعد اليوم مع طاهر لأمور معلقة بينهما .. لماذا ؟

ــ لأنى مهتمة به .

قالت بدهشة ..

ــ حقاً منذ متى ؟

ــ منذ أول يوم رأيته .

ــ ولم لم تقولى لى طوال تلك المدة .. ؟

ــ لم تأت مناسبة ثم إنه مجرد اهتمام ..

ابتسمت وقالت :

ــ حقاً .. وما الذى يعجبك فيه .. شكله ليس وسيما على الاطلاق .. ثم إن له آراء غريبة .

ــ وهل هذا هو الحب ؟

ــ لا .. ليس حباً ..

ــ وماذا يكون إذن ؟

ــ لا أدرى .. كيف أسميه ؟

ــ الآن أصدقك ..

ــ وماذا عنك أنت .. أما زال غراماً من طرف واحد ؟

ــ نعم ..

ــ وإلى متى ؟

ــ لست أدرى .. إننى حائرة .. إنه يروغ منى دائماً فلا أعرف كيف أمسك به إننى أتحول فى حضوره إلى طفلة تأتمر بإشارة من إصبعه .. آه لو عرفت ماذا يضمر لى فى قلبه ؟ .

ــ لماذا لا تفعلين شيئاً ؟

ــ ماذا أفعل ؟ . فى الحب لا نستطيع أن نفعل شيئاً بل نظل واقفين كالأطفال ننتظر ..

ــ هذا صحيح ..

ــ إنه لا يرانى وأنا أمامه كل يوم .. بل أنا جزء من مكتبه ..

ــ لقد قلتها .. إنه لا يراك لأنك أصبحت جزءاً من مكتبه ..

ــ أنا لا أفهمك ..

ــ ماذا تقولان كل يوم ؟ نفس الكلمات تقريباً .. أليس كذلك ؟ . صباح الخير كالمعتاد.. ثم من اتصل به تليفونياً ومن أخذت له موعداً معه .. ثم دخولك بالدوسيهات وبعد ذلك فى الثانية عشرة تدخلين ثانية لتذكريه بتناول الدواء .. إن كل من بالمكتب يعرف حتى حسين الساعى..

ــ وماذا يعرفون أيضاً ؟

ــ لا أدرى .. اسألى نفسك ..

وبسرعة أدركت أنى أخطأت .. فقد نظرت إلى فى عداء ..

جلست صامتة وبدأت هى تدريجياً تتغلب على شعورها وقد وجدت أنه عداء غير منطقى فما ذنبى أنا إذا كان نبأ حبها قد ذاع فى المكتب ..

دخل حسين الساعى إلى الحجرة فقطع خيط أفكارى وراح يتكلم كلاماً كثيراً لم أسمعه فقد كنت أفكر فى أحمد .

انفرج الباب مرة أخرى ودخل طاهر بقامته الطويلة ووجهه الوسيم .. ورفعت نادية عينيها تستجديان نظرة اهتمام ولكن عينيه ظلتا مطفأتين .

قال طاهر دون أن ينظر إليها :

ــ هل جاء أحمد إبراهيم .. أو اتصل تليفونياً ؟

ردت وهى تتسول نظرة :

ــ لا ..

راح يتكلم فى حدة

ـ هذا الأحمق .. ماذا يظنني ؟ يعتقد أني سرقته ؟ ماذا يظنني ؟ .

رفعت عيني إليه وصوبتهما بإصرار فى عينيه لأرى نظراته وهى تكذب.. أبعد عينيه وراح يتكلم كلاماً كثيراً ..

التقطت أذنى منه كلمتى الأدب والفكر .. كان مرور هاتين الكلمتين من بين شفتيه الكاذبتين يجردهما من معناهما الكبير .. فلم يكن وهو يتكلم سوى تاجر ..

سمعت نقراً على الباب .. ودخل أحمد إلى الحجرة وارتعش قلبى بالفرحة وتشبثت عيناى لحظة بوجهه ثم انتقلت بسرعة إلى وجه طاهر.. الذى انفرج فى سماحة كاذبة وترحاب مزيف .. شد على يد أحمد مسلماً .. وخبط على ظهره فى ود وبدأ أحمد حائراً مرتبكاً .. فى عينيه كلمات كثيرة غاضبة تريد أن تنفجر .. ولكنها تبخرت تماماً أمام ترحيب طاهر الحافل ..

وانسابت كلمات طاهر الرقطاء تلتف حول أحمد فى نعومة .. وكان غريباً أن ينهزم ذكاء أحمد أمام هذا الخبث .. فتح طاهر باب حجرته واختفى فيها هو وأحمد .. ومر الوقت ثقيلا .. وازداد ثقلا بعد أن خرجت نادية لبعض الأعمال .

بعد قرون من الزمن خرج أحمد وقد ازدادت الحيرة على وجهه .. تمنيت لو يتكلم .. لو يقول لى ما الذى دار بينه وبين طاهر ولكنه خطا ناحيتى فى ابتسام وبدا كأنه نسى موضوع طاهر .. وقال :

ـ مبروك ..

ـ لماذا ؟

قال وعيناه تبحثان فى إصبعى ..

ـ سمعت أنك خطبت ..

قلت والضيق يخنقنى :

– لقد رفضت .. ولكن كيف عرفت ؟

– من يهتم بشخص يعلم عنه كل شئ :

هو مهتم بى إذن ؟ لقد انتقى الكلمة التى أحبها .. توقف الحديث وتكلمت العينان .. قالتا همساً كثيراً فيه حب وحنان وعطف .

عاد يقول :

– لم تخطبى إذن ؟

– لا ..

– إذن أستطيع مكالمتك فى التليفون ؟

قلت فى فرح :

– سأنتظر مكالمتك ..

– ليكن فى الرابعة ..

سلم ومضى .. وهدأت الزوابع فى داخلى .. وازدهر شىء فى قلبى ..

١٩

جلست فى الرابعة بجوار التليفون أنتظر مكالمة أحمد ..

أنا أحب هذا الوقت من النهار .. إنه ليل مضىء .. استعار هدوءه من هدأة الليل .. وسرق خدر النوم من سواده ..

أنا أعبد هذا الوقت .. فالكل ينام إلا أنا .. أنا التى أظل العقل الوحيد اليقظ فى البيت .. حتى شجرة المشمش تبدو ناعسة فى حركة غصونها تراخ وكسل .. وكأنها نائم يتقلب .. تسللت إلى صورة أحمد وكلماته ورحت أفكر فى الفارق الاجتماعى الذى يفصل بيننا ..

أنا لم أحس ثرائى إلا من كلماته .. لقد ظللت طوال عمرى أتقبل هذا الثراء وأعيش فيه كشىء طبيعى فى حياتى .. كملامح وجهى الثابتة .. وكبياض بشرتى الناصع ولكن ماذا يعنى الثراء عندى .. ؟ إنه لا يعنى أى شىء .. أنا لا أشعر أنى أنتمى لطبقتى ..

أنا أشعر أنى غريبة فى بلدى .. يتيمة الأم والأب رغم وجودهما .. أنا لا أملك ثرائى .. ولكنه مسموح لى فقط باستعماله .. أنا لا أملك سوى روحى ..

دق جرس التليفون فاحتضنته وألصقته بأذنى .. وجاءنى صوته حنوناً ودوداً يسأل أن أشاركه الاستمتاع بنزهة قصيرة ..

وخرجت معه .. ومشينا يدى فى يده .. وكلماته تعانق كلماتى .. وخطواتنا تتوافق .. وتؤلف بإيقاعها على أرض الطريق نغمة عذبة فى أذنى التى تعودت وقع أرجلى وحدى فى كل طرق حياتى..

اصطبغت نوافذ البيوت بالاحمرار .. واخترق السماء سرب من العصافير وامتلأت نفسى بالجمال ..

تكلم أحمد عن عمله .. وعن سياسة البلد التى لا تعجبه .. ألقيت إليه بنصف اهتمامى وسرق جمال الطبيعة النصف الآخر..

انتبه أحمد .. إنى أردد « لا » و« نعم » دون فهم .. قال بشىء من الحدة :

— نجلاء .. أنت لا تصغين إلى ..

— آسفة يا أحمد .. فأنا لا أحب السياسة .. ولكن ألا ترى معى كل هذا الجمال ؟

— أراه .. ولكنى أرى القبح أيضاً .. أرى الاستعمار والفقر والأحزاب والفوضى والملك ..

— لماذا تشتم الملك ؟

— لأنه يسرق قوت الشعب هو وطبقة الأغنياء فى البلد .

— كيف تقول هذا يا أحمد .. إن الأرض ملكهم ..

— أليس حراماً أن يمتلك إنسان ألف فدان ولا يمتلك إنسان آخر قوت يومه؟. ثم انفجر فجأة : يجب طرد الملك .. يجب طرده ..

— ولكنك يا أحمد تتكلم عن أشياء لا يمكن تحقيقها ..

— بل ستتحقق ..

— كيف ؟

– بإثارة الرأى العام .. بالكتابة .. بفضح الحقائق .. وكشف المؤامرات التى تحاك لهذا الشعب المسكين ..

كان يتكلم فى حرارة وانفعال .. ماذا يقول لو عرف أننا نمتلك أرضاً شاسعة .. بحيواناتها .. وبالتالى الذين يعيشون فوقها ؟ .

٢٠

جاءت أختى وزوجها فى زيارة قصيرة إلى مصر .. وكانت (نهى) قد تغيرت تغيراً كبيراً يكاد يصعب على أن أتعرف عليها ..كانت قد اكتسبت شيئاً أجنبياً بشكل ما فى حركاتها وطريقة كلامها .. بل أكاد أقول فى ملامح وجهها ..

وعندما رآنى زوجها بعد تلك الغيبة الطويلة نظر إلى غير مصدق أن الفتاة الشابة التى تقف أمامه هى نفسها نونو الصغيرة كما كان يسمينى أيام خطبته لأختى. نظر إلى بدهشة غبية وقال ..

– لقد كبرت فجأة وأصبحت عروساً ..

وأردف بمرح ..

– تعالى بجانبى أيتها العروس الحلوة ..

جلست بجواره وبدأ يحكى لى حكايات كثيرة مسلية عن حياته بالخارج واستغرقتنى دعاباته لبعض الوقت ثم سألته :

– قل لى يا أونكل .. ألا نستطيع أن نخرج الإنجليز من مصر ؟

– لا .. لا نستطيع .. ولكن مالك أنت والسياسة ؟ . ألا تعجبك دعاباتى ؟.

انتظرى سأحكى لك حكاية أخرى وقعت لنا حينما كنا فى فيينا . كانت نهى .. ولكنى أحسست أنى أنفصل عن جو الجلسة بسرعة .. وأقف أتفرج

بتجريد شديد على ذلك الرجل الذى بدا لى غريباً تماماً وكأنى لاأعرفه .. لماذا يصرعلى رواية دعايات ليس لها آخر ؟ . لماذا لايريد أن يتكلم فى موضوع جدى هل يظن أنى مازلت طفلة صغيرة ؟؟.

نادتنى أختى لكى ترينى الهدايا التى أحضرتها معها من الخارج ..كانت واقفة أمام حقيبة ضخمة مليئة بكل لون يخطر على بال .. أمسكت بثوب من الصوف له زرقة بديعة تسرق النظر .. واحتجت لجهد حقيقى كى أنتزع عينى من الغرق وسط تلك الزرقة الخطرة ..

— جميل هذا الثوب يا نهى .

— أيعجبك ؟

— جداً ..

— خذيه .. إنه هدية لك .. ولكن لا تهمليه فى الدولاب بعد أن تلبسيه مرة واحدة .. وتذكرى أنه صوف إنجليزى وتفصيل إنجليزى ..كلاسيك..

قلت وأنا أضعه على جسدى أمام المرآة وأرى كيف يتوافق مع لون بشرتى..

— لن أهمله فقد أحببت لونه ..

— لم تقولى لى يا نجلاء ؟

— هه ..

— لماذا رفضت عادل .. ؟

— أنا لم أحب عادل أبداً .. بل أكاد أكرهه .. كم هو سخيف ..

ضحكت نهى وقالت :

— معك حق .. إنه سخيف تماماً كهشام ؟

— كهشام ؟ هشام أخى .. ؟

– أخفضى صوتك أتريدينهم أن يسمعوك .. نعم هشام أخى .. لقد كانا متشابهين فى كل شىء .. كلاهما مدلل .. ورأساهما مليئتان بالسخافات .. والتفاهات ...

السخافات .. والتفاهات .. كنت أسمع كلامها وأنا شاردة..

– هل نسيت ؟ .

قلت فى حيرة :

– لا .. لم أنس ..

٢١

تحدث أحمد فى موعده .. تسلل صوته إلى أذنى فأشاع البهجة فى قلبى

ــ أوحشتنى ..

ــ وأنت أيضاً ..

ــ وأنا أيضاً ماذا ؟

ــ أوحشتنى ..

ــ ولماذا تقولينها بهمس ؟

ــ أبداً ..

ــ كيف أبداً .. أنت تخجلين منى ؟

ــ أبداً يا أحمد ..

ــ بل تخجلين ..

ــ ..

ــ أرأيت ؟

ــ ماذا رأيت ؟

ــ صمتك هذا دليل على خجلك ..

قلت بلوم :

ــ أحمد ..

— لا تغضبى .. والآن ماذا كنت أريد أن أقوله ..؟ لقد نسيت تماماً !. آه تذكرت .. لقد حدثت أمى عنك كثيراً وهى تريد أن تراك مارأيك ..؟

— سيسعدنى ذلك .

— هل يناسبك بعد الظهر .. فى الخامسة ؟ .

— نعم .. إنه موعد مناسب فى مثل هذا اليوم الشديد البرودة ..

— ألا تحبين البرد ؟

— أنا لا أحب الشتاء ..

— لماذا ؟

— لأن اليوم قصير .. سريع .. مظلم .. وأنا أحب الضياء .. والظلام يقبض قلبى .. ربما لأن « هشام » مات فى الشتاء .. فى ليلة مظلمة .

— لماذا لا تحاولين أن تغيرى نظرتك للأشياء .. أحياناً تبدو الأشياء جديدة لمجرد النظر إليها من زاوية جديدة .. إن الاستسلام للتعود يقتل أجمل مشاعرنا .

قلت وقد شعرت بشىء من التوافق مع الشتاء لأول مرة .

— أنا أحب حديثك يا أحمد .. إنه يصنع منى إنسانة حرة .

— كل ماأرجوه أن أراك سعيدة .

فى الخامسة تقابلنا ودخلنا إلى شارع هادئ مسقوف بأذرع الأشجار ومفروش بالظلام وتتدلى من وسطه أشعة الشمس . أشار أحمد إلى منزل فى آخر الشارع وقال فى صوت عميق :

— هذا بيتى

شعرت من دفء كلماته بإحساس البيت .. أرسلت نظرى إلى حيث أشار ورأيت بيتاً قديماً ذا باب تستدير نهايته فى نصف دائرة محكمة .. ولشرفاته

درابزين حديدى مقشور الدهان ونوافذه تبدو كعيون متعبة شبه مغلقة .. وواجهة المنزل تبدو كوجه عجوز عريق يحمل كثيراً من الذكريات .. وتلتف حول المنزل حديقة رفيعة .. صعدت الدرجات وخيل إلى أن تلك الجدران البالية المقشورة الدهان تكلمنى بكلام كثير حميم .

أجلسنى أحمد فى المدخل وخطا هو إلى الداخل ..كان المكان شديد الهدوء .. وأحسست أنى أنفصل تدريجياً عن زمانى ومكانى .. وكأنى ولدت من جديد فى تلك اللحظة وذلك المكان .. وكأن المكان له توقيته الخاص به غير التوقيت العام هنا هدوء ، وسحر ، وسلام . هنا طمأنينة . دخلت أمه دون أن أسمع لخطواتها وقعاً .. كأنها كائن أثيرى . نظرت إليها .. الطيبة الساذجة تجملها من رأسها إلى قدميها .. ويشيع منها بهاء البساطة .. سلمت عليها بوجل .. وأخذت هى رأسى بحنان وقبلتها .. شعرت لأول مرة بالبنوة.. وأحسست أنها أمى وأننى أنتمى إليها . نظرت إلى فى ابتسام تتعرف على ملامح وجهى ، ورأيت نفس النظرة الحزينة بعينيها . عالم حزين يطل من خلف غلاف دموع متجمدة . نفس الحزن الذى بعينى أحمد . ولكن لا . هذا حزن مستسلم ، وأحمد حزنه ثائر يشتعل بالتحدى .

قالت فى بساطة :

– مرحبا بك يا ابنتى .

أحسست من كلماتها البسيطة أنها تعرفنى من زمن وأن لى فى قلبها مكانة.

تلاشت الغربة المزمنة فى روحى لثوان .. وكان أحمد يخطو حولنا وفى عينيه فرحة وهو ينظر إلى . قرأت أفكاره . إنه يتأملنى فى هذا الإطار الجديد .. إطار بيته ويسأل نفسه : هل أبدو لائقة فى هذا الإطار القديم ؟ .

ثم جلس إلى جوارنا وشملنا حديث بسيط عن الجو .. وكان أحمد يبدو مستمتعا بوجودنا معاً .

وفى نهاية الزيارة عندما سلمت عليها لأنصرف تمنيت لو ضمتنى إلى صدرها الحنون وطوقتنى بذراعيها .

٢٢

كنت أجلس أنا وهو فى كازينو خلوى على أطراف القاهرة ، وكانت الصحراء تمتد فى صفرة لا نهائية حتى تلتقى بالأفق الوهمى البعيد ،والهرم تتطاول درجاته إلى زرقة السماء الصافية ، والشمس ترسل دفئها فى حنان على الكون كله ، وأنا وأحمد نبدو نقطتين تحت أقدام الهرم .

قال أحمد وهو يستنشق الهواء ملء رئتيه :

– كم أحب هذا المكان . إنه هادئ .

– والشمس هنا رائعة وهى تحتضر عند الغروب لتموت موتها اليومى .

– ولكنها تبعث من جديد كل صباح . أليس كذلك ؟ . إن موتها يحتوى على ميلادها .

– إنها لا تموت .

– ليتنى أموت مثلها ، ويكون موتى ميلادى .

– أتحب الحياة إلى هذه الدرجة ؟

– نعم وأحب أن أعيشها إلى الأبد .

– بكل آلامها ؟ بكل تلك الأخطاء والشرور .. ؟

– نعم .. لأنى أشعر أن فىّ قوة هائلة تستطيع إصلاح الأخطاء والشرور وأحياناً ..

ـ وأحياناً ؟

ـ وأحياناً أشعر أنى ضعيف ، ضعيف جداً ، ولا حول لى ولا قوة .

ـ ومع ذلك أرغب فى الحياة .. فالحياة حلوة فى كل درجاتها .. حتى عذابها.. أحبه .. الحياة فيها جمال وروعة وسحر ..

ـ إن حبك للحياة يدهشنى .. فأنا لم أحب وجودى أبداً ..

ـ لماذا ؟

ـ لست أدرى .. كنت دائماً أحس أنى وحيدة فى عالم كله من الغرباء وأحياناً أشعر أنى وجدت خطأ ..وأحياناً .. يخيل إلى أنى عشت هذه الحياة من قبل .. أليس هذا مملا أن ترى كل جديد قديماً فى عينيك ؟

ـ أنت تحيريننى . فى هذه السن ، وتلك الثقافة ، وذلك الجمال ، وتكرهين الحياة ؟ أنت تملكين مفاتيح عديدة تستطيعين أن تفتحى بها كنوز حياتك . ويوم تملكين إرادتك وتقبلين على الدنيا فى ثقة وإيجابية ستكونين أسعد امرأة فى الدنيا .

هل أحمد يفهمنى ؟ هل يفهم حقيقتى ؟

أمسك بيدى وأهدتنى عيناه حباً وقال :

ـ أتمنى أن يجىء هذا اليوم قريباً .. يوم تقولين لى : يا أحمد ، الدنيا حلوة وأنا أتشبث بوجودى فيها .

سكت أحمد وبدا سعيداً هادئاً وخفتت لمعة التحدى فى عينيه .

إن حديثى مع أحمد يساعدنى على رؤية نفسى من الداخل . إنه يفتح لى قلبه ويأخذنى إلى دنيا كلها حنان ، ويمنحنى فهماً وحباً كبيراً .

٢٣

مرت أيام .. وأيام .. وأخذت زورق الحب وبعدت ، بل أوغلت فى البعد عن عالمى .. وأصبح أحمد دنياى .. والمرآة التى أرى فيها جمالى والتى أتقبل فيها هذا الجمال وأفرح به .. وأصبحت أوجد من وجوده وأعيش فيه .. فى حبه ، ولكن برغم أنى أحببته وبرغم أنى أحسست أنه يحبنى .. إلا أننا لم نتصارح بهذا الحب .. وزاد هذا من عذوبة العاطفة النامية فى قلبينا وأعطى لها أبعاداً عميقة .. أصبحت أحب أحمد وكل ما له صلة به .. بالجريدة التى يعمل بها .. طريقته فى الحديث .. صوته .. شكله .. بل لم أعد أرى فى ملامح الناس المختلفة سوى ملامح أحمد ..وفى أصواتهم سوى صوته.. لقد طبعت عينى كل الناس بشبهه وطابعه ..

وجاء الصيف . جاء الصيف الذى أحبه .. وأصبحت السماء زرقاء زرقة بيضاء .. وأنفقت الشمس الكريمة حرارتها ببذخ على الكون .. وبدا الأسفلت فى الشارع يسيح .. ونما النهار وامتد داخل الليل وسرقه .. وأزهرت الأشجار على جوانب الطرق .. وأصبحت قممها تبدو على البعد متوهجة مشتعلة .. وبدا الناس أكثر حياة وأكثر مرحاً ..

تقابلت مع أحمد فى المساء على ضفة النيل .. نظرت فى عينيه ..كانت عيناه مليئتين بالتحدى ..غلب التحدى على مشاعر الحزن والقلق المقيمين

أبداً فى عينيه .

تكلمت أفتح موضوعاً لأبعد قدر إمكانى عن النار الخابية فى نفسه والتى تنتظر كلمة لتشتعل ..

ــ سأطلب إجازة فى الشهر القادم لأننا سنسافر ..

ــ إلى أين ؟

ــ إلى الإسكندرية .. ثم إلى جدى فى العزبة لبعض الوقت ولوأنى أفضل الذهاب إلى العزبة رأساً لأنى أحب الريف .. أحب رائحة عيدان الحطب وأحب التوقيت البطىء الذى أدخل فى رحابه بدخولى العزبة .. هناك الشمس أكبر والدنيا أوسع .. وهناك أستطيع ركوب الحصان «كونت» وأطير به عبر الحقول .

نظر أحمد إلى وضحك ساخراً ..

ــ تتكلمين عن الريف كأنك إحدى السائحات .. كأنك لست مصرية ..

قلت بدهشة :

لماذا تتكلم هكذا يا أحمد ؟

قال وقد تسربت إلى نبراته مرارة :

ــ لأنك إقطاعية صغيرة .. تذهبين إلى العزبة لترفهى عن نفسك بالتفرج على عشرات الفلاحين وهم يعزقون الأرض . تنظرين من عليائك من فوق الحصان إلى دود الأرض .. إلى الفلاحين وهم ينثرون الحبوب لتطرح أموالا ..

وملأ الغضب وجهه كله وسأل :

ــ ماذا قلت ؟ اسم الحصان كونت ؟ ؟ حتى الحصان اخترت له لقباً فرنسياً ! الألقاب المصرية لا تعجب حصانك فيما يبدو ..

قاطعته مدافعة عن نفسى :

– ولكنى لم أقل إنى أراهم دوداً من دود الأرض . أحمد أنت تضع كلاماً على لسانى لم أقله ..

– تصرفاتك تقول بأفصح مما يقول لسانك .. طريقة كلامك .. نظراتك المتعالية .. كلماتك الفرنسية .. هل تعرفين معنى أن تكونى فلاحة ؟ معناها الجوع والفقر .. والمرض .. والطين حتى الركبتين .. معناها أن تتمزق كفاك وتتشقق قدماك وتشوى الشمس بشرتك الريانة الطرية . معناها ألا تعرفى الأمان أبداً .. أتريدين مثلا حياً لهذا الفلاح ؟ . هاهو أمامك.. أنا أحمد إبراهيم الفلاح ابن الفلاح .. أنا واحد من ألف فى قريتى استطاع أن يتعلم إلى النهاية ..ماهو العلم بالنسبة لك ؟.. ترف . وغرور . . وحذلقة . ودليل ثراء ووجاهة .. ولكن العلم بالنسبة لأمثالنا طوق نجاة . . ومرفأ أمان .. وحياة .. ماذا تفعلين بالخمسة عشر جنيها التى تأخذينها من عملك ؟ . تشترين بها حذاء جديداً لترميه بعد أن تلبسيه مرة واحدة .. إنها أجر السائق الأسود الذى يزين به أبوك عربته . . لماذا لا يقود هو وأنت ؟ . لماذا تجلسين بجوار السائق ؟ . تنازلا وتواضعا . . أنا أمقت هذه الطريقة التى أنجبتك .

تحشرج صوته وسكت . محال أن يكون أحمد يعنى كل هذا الكلام . محال أن يكرهنى كل هذه الكراهية .

قلت :

– أحمد ماذا يغضبك اليوم . قل لى ؟

انطفأ التحدى بعينيه .. وظهرت الطيبة الحلوة فى ألوان نظراته العديدة ثم ارتسم الحزن فى أحلك درجات سواده .. وتكلم فى أسى . . قال :

– نجلاء .. لقد أغلقوا الجريدة ..

قلت فى دهشة ..

– كيف .. لماذا ؟ ما السبب ؟

أكمل ...

– هاجم رئيس التحرير الملك فأغلقوها .. وصادروا الأعداد ..واعتقل رئيس التحرير .. وربما اعتقلونى أنا أيضاً ..

– صرخت :

ماذا .. كيف .. ألست حراً تكتب ما تشاء ؟

قال فى سخرية :

– ألم أقل لك إنك سائحة ؟ .

– أحمد لا تسخر منى .. أحمد .. لا أحد يستطيع أن يعتقلك . . قل لى أن لا أحد يستطيع أن يمسك ..

قال فى ابتسامة :

– حسناً .. لا أحد يستطيع أن يمسنى ..

– أحمد .. لا تكذب على ..

– أيهمك أمرى إلى هذا الحد .. ؟

– بالطبع ..

– وماذا عن المئات والألوف الذين فى السجون .. ألا يهمك أمرهم أيضاً ؟.

قلت فى حيرة :

– يهمنى ولكن ماذا بيدى ؟

– بيدك الكثير .. تستطيعين أن تثورى .. وأن ترفضى هذا الحكم .

قلت فى حيرة أكثر :

— كيف ؟

— على الأقل بينك وبين نفسك .. إن عدم مبالاتك بما يجرى حولك من أمور بلدك خطأ كبير بل جريمة حتى فى حق نفسك .. وحق وطنك .. أن تقولى أنت .. ويقول هو .. وتقول هى .. ويقول مائة وألف . . ومليون و٢٢ مليون هذا ليس شأنى .. وما دخلى .. هنا الجريمة والمأساة . إن الثورة هى أن يثور كل واحد .. وساعتها سوف يخرج الملك وسيخرج فى أثره المستعمر ..

— أنت على حق يا أحمد .. ولكن ماذا أستطيع أن أفعل وأنت تكرهنى كل هذه الكراهية ؟ .

قال فى هلع مفاجىء .

— أكرهك ؟ . هل قلت إنى أكرهك ؟ . وهل أستطيع ؟ . هل يمكن ؟. نجلاء .. أنا أحبك (أمسك بيدى وأكمل) أنا لاأكرهك ولكنى أكره سنوات عذابى .. أكره طفولتى الشقية .. أكره طبقتك التى داستنا وداست على آمالنا .. ولكن ما ذنبك أنك من هذه الطبقة ؟ . لماذا يدفع قلبك النبيل ثمن خطايا لم يرتكبها ؟ . نجلاء .. أنت مظلومة مثلى ..

قلت وقد تحولت إلى رعشة حنان :

— وأنا أحبك .. ولكن لا تقل تلك الكلمة مرة أخرى .. لا تنطق بهذه اللفظة الفظيعة .. الكراهية .. انحنى أحمد على يدى وقبلها فى وجد ..

فى عودتى إلى الفيلا نبت فى قلبى خوف من ثورة أحمد .. وكلماته المريرة مزقت حرير عواطفى .. لماذا تكلم أحمد بتلك المرارة ؟ . وكيف استطاع أن يكون بتلك القسوة ؟ . لقد أرعبتنى قسوته .. زلزلت مشاعرى .. ولكن

صارحته بحبى أنا الأخرى بعدها ؟ . أنا لم أحس بالجرح إلا بعد مدة .. بعد أن بدأ قلبي ينزف ألماً ..

دققت جرس الفيلا ففتح لى السفرجى الباب .. ودقت ساعة البهو فى تلك اللحظة .. وارتفعت ثرثرة « عبده » فى أذنى وشعرت بهذه الضجة المنغومة تحملنى إلى دنيا الأمان ..

ـ الست والبك عند شريفة هانم لأنها وضعت ..

جاءنى صوته كضباب كلمات ليس لها معنى حقيقى ..

صعدت إلى حجرتى .. إلى أصدقائى الأشياء .. ستائرى المسدلة ومصباح قراءتى ووسادتى .. واللوحة المعلقة فوق فراشى .. أصدقائى الأشياء ينظرون إلى ويعلمون كم أنا حزينة حيرى فى أمر أحمد ...

جلست على حافة الفراش وتحسست نعومة ملمسه .. واحتضنى الأمان وآنستنى الوحدة ...

٢٤

ذهبت مع أمى فى الصباح إلى شريفة فى المستشفى .. دخلنا إلى الحجرة البيضاء فى الجناح الكبير .. وفى الفراش الصغير كانت ترقد شريفة تعسة شاحبة . اقتربت من الفراش وانحنيت على وجنتيها ألثمهما .. ويبدو أن قبلتى هزت مشاعرها فانهمرت الدموع من عينيها وغمغمت تشكو إلى..

– بنت يا نجلاء ... مرة أخرى بنت ..

ربت يدها أواسيها وأقول لها :

– كل ما يعطينا الله جميل ..

ولكنها استرسلت فى البكاء .. وراحت أمى تواسيها وتمنيها .. بمولود ذكر فى المرة التالية .. وخيم علينا الصمت .. كل واحدة سارحة مع أفكارها. شريفة تحلم بمولود ذكر .. وتشعر أنها مذنبة لأنها لم تنجب الوريث الذى كان ينتظره زوجها ليورثه ثروته .. وأمى سارحة فى أشياء بعيدة لا أعرفها .. وأنا حزينة من أجل المرأة فى بلدى .. أتساءل .. هل خلقنا نحن النساء من أجل أن نصبح أدوات تكاثر وتناسل .. نلد ونرضع .. ثم لا شىء بعدهذا؟.

عند خروجى مع أمى من المستشفى خرق أذنى صوت ولدين يتصافعان بالشتائم .. وفى الثوانى القليلة التى استدار فيها مرغنى السائق بالعربة ليأتى

أمامنا .. أحصيت عشر شتائم .. كل من الولدين يحقر أم الآخر لأنها امرأة. ما بال الرجل لا يحقر نفسه أيضاً ؟. أليس هو ذاته ابناً لامرأة ؟

شعرت بأنى أتضاءل وأن هذه الشتائم تدهشنى .. وتدوسنى أنا الأخرى..

٢٥

مر يوم وآخر ولم يتكلم أحمد .. لم يسأل عنى لا فى العمل .. ولا فى ميعاد مكالمته اليومية فى منزلى ..

طلبته فى المنزل فلم أجده .. رد على رنين ساخر يضحك من عواطفى .. أين أحمد ؟ لماذا لم يتصل بى ؟. ترى هل اعتقل ؟. كيف لم أفكر بهذا من قبل ؟. ولكن هل ممكن أن يعتقل ؟. داهمنى خوف شرير وعصر قلبى.. بقسوة سارعت أطلبه لأول مرة فى الجريدة فلم أجده أيضاً .. انتظرت شهوراً من الثوانى وسنين من الدقائق .. أن يتكلم هذا الصامت فى الركن .. أن يصرخ ويملأ الغرفة برنينه الفرحان . أمسكت بالسماعة مرة أخرى و طلبته فى أمل.. وفى تلك المرة سمعت صوته الحلو يرد على ..

صحت بلهفة ...

ـ أحمد أين أنت .. لماذا لم تتصل بى ؟

رد ببساطة ..

ـ كنت مشغولا ..

ـ مشغولا إلى درجة ألا تكلمنى يومين ؟

ـ فقط كنت مشغولا ..

ـ ولماذا هذا الضيق .. إذا كان يضايقك أن أسأل عنك فلن أسأل ..

ـ نجلاء لماذا يبدو صوتك مخنوقاً ؟

ـ ليس مخنوقاً ..

ـ ما بالك هل أنت غاضبة منى ؟

ـ نعم ..

ـ لماذا ؟

ـ لأنك أصبحت قاسياً ..

ـ أنا لست قاسياً .. قولى إنك لست غاضبة ..

ـ لست غاضبة ..

وأردفت وأنا أبتلع كبريائى :

ـ هل أستطيع أن أراك اليوم ؟ .

ـ نعم موعدنا فى الكازينو فى الخامسة ..

ـ إلى الخامسة إذن ..

وضعت السماعة .. ومسحت بيدى على وجهى فوجدته مبللا بدموعى.. إن مجرد كلمة قاسية من أحمد فجرت ينبوع الحزن من عينى .. ولم أشعر أنى كنت أبكى طوال مكالمتى له .. لماذا لم يسأل عنى يومين ولماذا لم يقل فيم كان انشغاله ؟ . إنه لم يكلف نفسه مشقة انتحال عذر.. أى عذر .. لالن أذهب إليه .. سأكلمه وأعتذر له عن عدم الذهاب .. لماذا تسرعت وطلبت مقابلته ؟ لماذا فرضت نفسى عليه ؟ . ما أسخفنى ! .

اليوم الحياة تضجرنى رغم وجود أحمد فيها .. ورغم محاولته إقناعى أن الدنيا حلوة .. ظل الضجر يطاردنى وشعرت أنى معتقلة داخل نفسى .. داخل صدرى وظهرى ورأسى وأطرافى .. عيناى نافذتان ضيقتان أنظر منهما من سجن جسدى إلى العالم الخارجى ولكنى لا أستطيع أن أتجاوب معه ..

وكأنى منفية داخل عذابى وجحيمى وقد فقدت التجانس مع جميع الأشياء.. كنت فى حاجة إلى يد تخرجنى من داخلى .. أحمد كان يلوح بيده ولكنه يعود فيسحبها ... ويتركنى أهوى وأغرق .. صوته يأتينى خافتاً بعيداً هو الآخر ..

أنا وحيدة .. وحيدة .. والعالم أجمع والمجتمع والناس وأحمد يبعدون. يبعدون ويوغلون فى البعد والغربة . لا أحد قادر على استصدار عفو عن روحى لترجع فتحس أن جسدها هذا هو وطنها الصغير.. روحى مغتربة منفصلة انفصالا تاما عن جسدى .. الملل يغزونى والتكرار يقتلنى .. إن مجرد تصورى أنى سأعيش وأموت مثل هذه الشجرة الوحيدة فى الحديقة .. أسقط فى مكانى.. وأنتهى نهاية خرساء .. هذا التصور يفزعنى .. لماذا لا أترك كل شىء وأسافر إلى (نهى) فى إيطاليا ؟ . ربما وجدت نفسى فى المجهول .. لوأستطيع أن ألغى ذاتى وأولد من جديد فى مكان آخر وزمان آخر ؟ . زمان آخر .. زمان آخر .. ربما ولدت فى الزمان الخطأ .. إن كل شىء يبدو غير متجانس روحى .. لماذا لا أسافر إذن .. وأترك أحمد وكل شىء ؟ .

ما هذه الأفكار ؟ . ما أنا إلا هاربة .. هاربة من بلدى.. من أهلى .. من نفسى ومن حبيبى .. ولكنى لم أكلم أحمد ولم أعتذر له عن الموعد بل غمرتنى فرحة أخجلتنى .. لأنى لم أعد أستطيع العيش بدونه .. إن مجرد تخيلى دنياى بغيره مستحيل .. مستحيل ..

٢٦

في الخامسة تماماً كنت هناك في الكازينو أنتظره .. اخترت منضدة على النيل مباشرة وجلست وأخذت أنظر إلى الكون وإلى تلك الثروة من المياه التي تتنزه أمامي بين الضفتين .. جلست أفكر .. ليتني نقطة في هذا النهر العريق .. ليتني هذا الطائر الشريد الصغير الذي يقفز فوقه من ناحية إلى أخرى .. ليتني تلك السحابة المصبوغة بالاحمرار .. أوتلك النسمة المحملة بدفء الربيع .. ليتني هذا الضباب الزجاجي الشفاف . ذلك الرداء الذي يغلف النهر والضفاف وهامات العمارات والكون يبدو من خلاله سحرياً لماعاً غير حقيقي .

آه لو أتحلل إلى ذرات غير مرئية تحتوي على حرية الحركة ؟

ها هو أحمد قد أتى أخيراً بعد نصف ساعة كاملة يعتذر كأنه لا يعتذر ويجلس وأنظر إليه ويتحدث إلي .. ويأتيني صوته عبر أذني كصوت غريب أسمعه لأول مرة ولا أأتلف به .. أمسك بيدي لمس جسدي ولم يلمس روحي.. لم يهز أعماقي .. إنه هو الآخر بعيد اليوم عني وأنا أحس الضياع ..

سقط الصمت بيننا وأقصى كلامنا داخل نفسه .. مددت صوتي بكلمة تصافح صوته وتبعد الغربة عن جلستنا ولكنه لم يرحب بها .. رداً مقتضباً مع وحدتي وراح في غيبوبة فكره ..

لماذا هو بعيد اليوم عنى ؟ . ولماذا لا يتحدث ؟ . ولماذا خصام الصمت هذا ؟ . إن قسوته لا حدود لها .. لماذا لا يتكلم ؟ .

قال أخيراً :

– كيف حالك ؟

أنا أكره تلك الكلمة المهلهلة التى يستعملها الآلاف كل يوم.. ولكنى أجبت بنفس الكلمة الممزقة :

– كيف حالك أنت ؟

ولم أستطع منع نفسى من أن أضيف ..

– هل يضايقك شىء يا أحمد ؟ .

– لا .. لماذا ؟

– فقط .. أنت لست كعادتك ..

– كنت متعباً .. مريضاً ..

قلت ولهفة تدفع بنفسها برغمى إلى صوتى :

– مريض .. ؟ ماذا تشكو .. أنت لم تقل لى شيئاً ..

– لم يكن مرضاً حقيقياً .. لم يكن شيئاً ..

سكت وسكت وبدأ الضيق يترجم نفسه دموعاً تكون خلف عينى لتفضحنى بالبكاء .. لا لن أقول له إنى قررت السفر غداً .. إنه يبدو على أى حال غير مهتم بى .. ولن يهتم بالتالى لسفرى .. هل أقول له ؟ بالتأكيد سيرد بصوت هادئ ليس فيه توتر الحب ولهفته .. ربما يرد هكذا – حقاً ستسافرين ؟ . مع السلامة .. لا لن أقول له شيئاً ..

قلت قبل أن تنسكب الدموع من عينى وتفضحنى ..

– أحمد شريفة ابنة خالتى التى وضعت منذ يومين والجميع ينتظروننى

فى المستشفى يجب أن أقوم الآن ..

قال كأنه صدقنى ..

ــ حمداً لله على سلامتها ..

ــ شكراً ..

ومشيت أتعثر فى تعاستى إلى الباب لأختفى فى سيارة أجرة تحملنى إلى البيت .. لماذا يبعد أحمد عنى وتفارق يده يدى بلا مبالاة ؟. لماذا تموت أفراح الاهتمام بعينيه ؟. ولماذا يقفل على روحه متاريس العزلة ؟. لماذا يترك يدى ممدودتين فى استجداء ويصفع حنانى ؟. وأنا أتجمد وقدماى تلتصقان بالأرض والسلاسل تحكم الرباط حولهما وتسد أبواب الخلاص فى وجهى .. وأموت ببطء .. ببطء ..

كل شىء يضجرنى .. الحياة .. الطبيعة .. لون الزرقة الباهت فى السماء والاستسلام فى وجوه الناس .. والركود .. الركود فى كل شىء ..

قضبان غير مرئية تحكم الرتاج حولى ..

حياة العمل تحولت إلى رتابة .. وأصبح الذهاب إلى العمل كل يوم يرعبنى . تقول لى نادية « صباح الخير » بنفس نبرة صوتها المعدنية .. وأرى وجه حسين الساعى بنفس تعبيراته المسكينة .. حتى الضوضاء فى المكتب أصبحت إحدى ملامح كل يوم .. وكأنها من آثار أقدام دب يلف فى قفصه .. تخطو قدمه فى كل مرة على آثار أقدامه السابقة ويظل يلف .. ويلف .. وينسى أنه يلف ويعود يلفهن جديد .. حياة قديمة مسرفة فى القدم.. عجوز ..

وسافرت إلى المصيف دون أن أقول لأحمد .. مضت العربة تكتسح الطريق تقربنى من الإسكندرية وتبعدنى عن القاهرة.. عن أحمد ..

فى حجرتى الصغيرة بالفندق وقفت أنظر إلى أشيائى .. التى سأعيش معها فترة الصيف ..

هربت بنفسى إلى الشاطئ وحاولت أن أتذكر طفولتى وملاعب صباى على رمال الماضى .. ولثمت الشمس وجهى وأحالت رمال الشاطىء الناعمة وقواقعه المهشمة إلى طريق منثور بالفضة معبّد بآلاف من حبات الخرز المضيئة الملونة .

تخللنى هواء البحر وتخلل ذكرياتى .. وتكسرت عشرات الأمواج تصافح قدمى فطالما عرفتنى طفلة ألهو عند الشاطىء المتعرج ..

ثم عادت براقع السحب تظلل وجه الشمس ثم تلفه وتغرق به وراء الأفق وانتهى مشهد الاحتضاراليومى للشمس .. وتذكرت من جديد كلمات أحمد ومضيت راجعة من نفس الطريق ..

٢٧

جاءت بنات عمى مع اليوم الجديد ليأخذننى معهن إلى الشاطىء .. فرح أبى ورحبت أمى ..

ــ أهلا ببنات اسكندرية .. ألا نراكما إلا من السنة للسنة ؟

ردت سهير :

ــ لماذا لا تأتون فى الشتاء ياعمى .. إن الإسكندرية فى الشتاء بديعة ..

ــ وما حيلتنا فى الأعمال التى تشغلنا طوال الشتاء .. المهم ها هى نجلاء معكم.. امرحوا معها .. ولكن أين ماجد ..؟

ــ سيحضر بعد الظهر ..

ــ هيا يا نجلاء اذهبى مع بنات عمك .. متى تعودين ؟

قالت سلوى ..

ــ سنقضى اليوم فى الكابين ياعمى .. أرجو أن تسمح لنجلاء بقضائه معنا ..

قلت :

ــ سأعود فى المساء إذن ..

ــ هيا بنا ..

وأخذتنى إلى الشاطىء .. إلى البحر الذى أحبه .. إلى غموضه وثورته وموجه .. وحركته .. وألوانه المتعددة .. والرحابة التى تمتد أمام بصرى والتى لا يحدها إلا الأفق الوهمى البعيد .. وإلى صوته الذى لاأمل سماعه.:

جلست سهير أمامى مرحة سعيدة بلا سبب وراحت تنتقد كل من يمر أمامها وتضحك منه .. وأبدت إعجابها بالبنطلون القاتم الذى أرتديه وقالت إنها ستشترى مثله فى الغد .. وسألت نفسى .. كيف يمكنها أن تكون بمثل هذا المرح وتلك السعادة . أعتقد أنها لا تفكر تفكيراً جدياً فى أى شيء على الإطلاق ..

— أهلا نجلاء .. ما هى أخبا ك ؟

— أهم أخبارى أنى توظفت ..

— توظفت .. توظفت فى ماذا ؟

مرت شلة .. من صديقات سهير وسلوى فقامتا تتكلمان معهن وقال ماجد :

— هل تحبين أن نتمشى قليلا ؟ .

— لا مانع .. هل تأتين معنا يا سهير ؟ .

كانت مشغولة بمجموعة من الصور التقطت لها فى البحر وعلى الشاطىء فلم تجب .

ومشيت أنا وماجد . كان الوقت قد أصبح بعد الظهر والشاطىء شبه خال من الناس.. خلعت الصندل وثنيت البنطلون إلى أعلى ومشيت فى الماء .. ولامست الأمواج قدمى وتصاعدت رائحة البحر إلى أنفى وملأت نفسى بمتعة لا حد لها ورجع ماجد يتحدث عن العمل ..

— هل اشتغلت حقاً ؟

— نعم .. لماذا أنت مندهش ؟ .

— أنا مندهش فعلا فلماذا تتعبين نفسك بالعمل والمادة متوفرة والحالة ميسورة ؟

— أنا لا آخذ من العمل الجانب المادى فقط .. إن تجربة العمل فى حد ذاتها تعمق شخصيتى .

— وهل تجربة العمل وحدها هى التى ستعطى لشخصيتك العمق ؟ أمامك الحياة مليئة بالتجارب وإذا طلبت من أبيك أى مبلغ فإنه لن يتردد فى إعطائه لك ..

— أطلب .. أنا لا أريد أن أطلب .. لقد كبرت .. وأنا أريد أن آخذ مقابل ما أعطى .. ماذا أعطى لوالدى مقابل ما آخذ منه ؟ بنوتى .. أنا لا أعطيه هذا مختارة .. لقد وجدت نفسى ابنته .. هذه علاقة تخلو من الحرية. إنى لا أجد حرية إلا فى الحب والصداقة .. فأنا لا أعطى حبى إلا للشخص الذى يعجبنى فعلا .. ولا أعطى صداقتى إلا للشخص الذى أرى أنه يستحقها ، ثم فى الصداقة الحقيقية حرية لاحدود لها .. أتعلم ما الذى يجعلنى أتمسك بالعمل ؟

— ماذا ؟

— لأنى أحاول عن طريقه أن أجد مبرراً لوجودى ولكى أبعد عن تفكيرى أن الحياة سخافة كبيرة ..

— سخافة كبيرة ! . ماذا تقولين ؟ أنا أراها متعة كبيرة ..

— أنا لاأراها كذلك ..

— وكيف ترينها إذن ؟

— أنا ما زلت أبحث عن معنى لحياتى .. أتمنى أن أفهم الحياة وأجد لها سبباً..

— لماذا توجعين رأسك الجميل بتلك الأسئلة الفلسفية ؟

ورفع إلى وجهه ونظر إلى بملء عينيه ..

كان ينظر إلى كفتاة حلوة فحسب .. ما أبعد الفارق بينه وبين أحمد ..

٢٨

رجعت إلى الفندق متعبة حزينة .. مررت آخذ مفتاح حجرتى فأعطونى رسالة عرفت فى الحال خط أحمد فوق الخطاب .. دسسته بسرعة فى جيبى وتبخر تعبى كأنه كان وهماً .. تمهلت فى فض الخطاب.. واستعذبت انتظارى. ولكن ترى كيف عرف أحمد عنوانى ؟ . لابد أنها نادية .. وكيف تجرأ وبعث به إلى .. إن تلك الجرأة تعجبنى ..

دخلت إلى حجرتى وأقفلت الباب بالمفتاح وجلست على حافة الفراش وقرأت كلماته ..

« أيتها الهاربة منى .. ومن نفسك .. ومن القاهرة .. أين المفر ؟ لقد بدأ موج القلق يشف عن أعماقك ويكشف كل ماهو أصيل فيك .. والآن صارحى نفسك وقولى لها .. لماذا تقاومين حبى وتخفينه فى قلبك وتهربين..

إن كبرياءك الكاذبة تعذبك .. فصارحى نفسك .. استعرضى عواطفك من جديد واعلنى حقيقة واحدة هى أنى أحبك » ..

أحمد ابراهيم

يقول إنى أقاوم حبى وأخفيه .. ومتى كان الحب يخفى ؟ . إنه فى نظرات عينى ، فى لمسات يدى .. فى نبرات صوتى .. وفى همس باسمه .. كيف أستطيع الهرب منه وهو كل فكرى .. وهو كل الناس حولى .. وكل أشيائى؟.

هو يتجسد فى الوسادة التى أحتضنها .. وفى الحائط الذى أنظر إليه .. يطل على من كل زوايا البيت والشارع .. ينبض مع الدم فى قلبى ..

هذا القلب أصبح منطقة نفوذ تابعة له تتلقى أوامرها منه ..من مالكها.. انقسمت فى داخل إلى اثنين متصارعين يكره الواحد الآخر .. ويحبه ويعبده. أنا وهو ..

قمت إلى المرآة لأثبت لنفسى أنى شخص واحد ولست شخصين .

إن بينى وبين أحمد صراعاً طبقياً . إنه لا ينسى أنى من طبقة السادة الذين امتلكوا كل شىء وأنه عاش معدما .. ولكن ما ذنبى ؟ . لماذا يتقاضى منى عذاب السنوات التى عاشها ؟. وعاودنى حنينى الجارف إليه بعد أن صفيت حسابى مع نفسى ومعه .. عاودنى حبى له كأقوى ما كان..

— إن الحب هو الشىء الوحيد بلا منطق .. إنى أحبه لأنى أحبه . إن قلبى يحبه وعقلى يعبده ويرفض مجرد التفكير فى شخص آخر ..

إن حبى يفرض التوحيد على قلبى ويأبى الإشراك ..

كيف احتملت هذا البعد .. وفيم كان غضبى منه ؟ . إن غضبى يبدو شيئاً بعيداً كأنه لم يكن .. لقد عاد فأصبح كل شىء .. مرآة وجودى ..ومحور إبصارى وسبب جمالى ..

وأصبحت أيامى انتظاراً .. انتظاراً ليوم رجوعى إلى القاهرة .. إلى أحمد جلوسى مع الآخرين أصبح صمتاً ، ونظراتى أصبحت تتخللهم لتغرق فى التفكير فيه .. وغمرنى إحساس قوى بأنى أريد أن أبقى وحيدة .. فقط مع خياله .. إن شخوص صورته أمامى ومثول خياله يحقق لى هدوءاً داخليا واطمئناناً وسكينة .. لدرجة أكاد أغفو معها من كثرة الهدوء .. أريد أن أسدل جفونى على رسمه وأبقى هكذا إلى الأبد .. كلماته الصريحة البسيطة

يلوكها تفكيرى كالحلوى .. ويحفظها قلبى كأبيات من الشعر المتحرر الذى كسر كل القيود ..

وأخيراً وبعد طول انتظار رجعت إلى القاهرة وإلى حجرتى .. إلى فراشى وستائرى ومرآتى ، إلى أحمد ..

تقابلت معه عند الكازينو ووجدته واقفاً أمام الباب سألته ..

— ألن ندخل ؟ .

— لا تعالى نذهب إلى مكان آخر ..

ركبنا سيارة أجرة .. أمسك أحمد بيدى .. وظللت أنظر إليه ..كنت لا أريد أن أضيع لحظة واحدة فى النظر إلى شىء آخر سواه .. اشتبكت عينانا فى عناق حنون ورفع هو يدى إلى شفتيه يترجم حبه إلى لثمات .. وجرت بنا العربة فرحة بلقائنا ..

وفى الصحراء وقفنا .. أحمد وأنا .. أخذ رأسى بين يديه وراح يتعشق عينى .. اقترب ببطء بوجهه منى ولأول مرة منذ حبنا قبلنى .. بدأ بلثمة خفيفة على الوجنتين ثم زحفت شفتاه تحتضنان شفتى وهمستا بكلمة الحب.

— كيف تركتك تبعدين عنى ؟ . لن أتركك بعد الآن .. أنا لا أستطيع أن مرة أخرى ..

— أحمد لا تتركنى ..

— لن أتركك تذهبين .. أنت حبيبتى .. أنت أنا ..

همست بهيام ..

— حبيبى .. حبيبى ..

تهت بين الأحضان الحنونة .. ونسيت للحظة أنى تركت له جسدى يعتصره ونسى عقلى لوهلة أن ما فعلته ذنب.. استسلم هو الآخر لفيض الحنان من

اللثمات والضمات المشتاقة .. ولفنى أحمد بين ذراعيه .. وأراح رأسى على صدره وبدأ عقلى يفيق من دوار الحب .. وبدأ يحسب أخطائى .. وداهمنى شعور بالذنب فشوه سعادتى وأنزلها من عليائها ..

غمرنى أحمد بنظرات تحتوى على عواطف عديدة متداخلة ملتوية .. من حب رجل .. وحنان أب .. وعناد طفل .. ويزاوج بين هذه العواطف عذاب دائم .

إنه يتعذب حتى وهو سعيد .. إن العذاب الحزين لون يدخل تركيبه فى كل ألوان عواطفه المختلفة فيصبغها .. يصبغ الإحساسات المضيئة بالظلال .. وأحياناً بالسواد .. وقفنا ينظر كل منا فى عينى الآخر ونقرأ أعماقنا ..

همس أحمد :

– نجلاء لماذا يشوب نظراتك قلق .. أتخجلين من عواطفك ؟

همست أعترف :

– نعم إن الشعور بالذنب يشوش على لحظات حبى .. ويسقطنى من حالق سعادتى إلى حضيض التعاسة ..

قال بدهشة :

– نجلاء أنت تستمدين احترامك منى وأنا أحترمك وأضعك فى أغلى ماعندى أضعك فى قلبى وعقلى وأبخل بك على نفسى .. حبيبتى لا تخجلى منى ، أنا أحبك ..

– أنت تحترمنى ولكنى أنا فى داخلى شخص آخر لا يحترمنى .. شخص يعذبنى ويلهبنى بسياط الاتهام .. أنا أحترق من الداخل ..

– مازلت حائرة ياحبيبتى .. إن الشخص الذى يثق بذاته يضع لها دستوراً يخطو على هديه وأحكامه .. فلا يعود مهزوزاً .. ولا يقف أمام نفسه

موقف الاتهام ..

- نعم مازلت حائرة يا أحمد ..
- يجب أن تتخلصى من تلك الحيرة ..
- أنا أحاول ولكن هل سأستطيع ؟
- لو كانت عندك شجاعة .. أتذكرين قصص الشجعان التى كانت تحكى لنا فى طفولتنا ؟ إن الشجاع لا يصل إلى الكنز إلا بعد مصاعب جمة .. وطرق عديدة يصارع فى أثنائها وحوشاً عديدة .. الوحوش المادية التى تصورها تلك القصص ليست فى الحقيقة سوى وحوش داخل أنفسنا والكنز هو رمز وجائزة للانتصار على النفس وسيطرة على عنانها .. ولا شىء بلا مقابل . لكى تشترى يجب أن تدفعى مقابل ما اشتريته نقوداً .. ومقابل أن تجدى شخصيتك يجب أن تدفعى تجارب وضريبة تحمل مسئولية الخطأ والصواب .. مشكلتك عدم ثقة بنفسك ..وعدم تحمل للمسئولية ..
- لا شىء بلا مقابل هذه دعوة مادية يا أحمد ..
- نعم .. أنا مادى .. لماذا تنظرين إلى هذه النظرة ؟. أنا أكبر وأكثر تجارب منك .. إنك تحبين فى أولى تجاربك ..

إن كلماته تقص أجنحة خيالى وتعوقنى عن التحليق ..

قرأ فى تقطيبة وجهى تفكيراً عميقاً .. قال يداعبنى :

- لماذا هذه الهموم على وجهك الجميل ؟ .
- أنا أحاول .. أحاول أن أفهمك ..

أسدل الظلام أستاره .. طلبت من أحمد الرجوع إلى البيت ..

ابتداء من الغد أعود إلى حياة الملل والرتابة والتكرار والحلقة المفرغة..

فى المساء كلمتنى شريفة . كان بصوتها شوق كبير وأبدت رغبتها فى أن ترانى سألتها عن مولودتها فعاتبتنى لأنى لا أزورها.

وأمام مهد الصغيرة وقفت أتأمل تلك الكتلة الغريبة من الحياة ..

كيف لا تكون هذه المولودة اللطيفة مبعث بهجة وحب بين قلبى شريفة وزوجها ؟ .

سألت شريفة ..

– أكنت تفضلين أن تكون مها ولداً يا شريفة ؟

تراءت لى حيرة فى عينيها وأجابت :

– كنت أتمنى قبل أن أراها لوكانت ولداً .. ولكنى الآن متمسكة بها ..

– ولماذا تمنيتها ولداً .. ؟

– إن الولد شىء آخر .. إنه رجل .. إنه رب البيت .. وهو كل شىء..

شريفة ترد ردوداً قاطعة تحيرنى .. وتساءلت مرة أخرى ما الذى يميز الرجل ويعطى له كل تلك القوة والسيادة ؟ . وما الذى يجعل له الكلمة العليا والمقدرة على إسعاد أو إتعاس المرأة التى تحيا معه ؟ . إلا أنه السيد الذى ينفق على المنزل ؟ أيكون مجرد تفوقه المادى مبعث تلك السيادة ؟ . أم هو تركيبه الجثمانى ودوره الإيجابى فى علاقته بالمرأة ؟ . ولكن ما أتفه تلك الفكرة أيضاً .. ماذا إذن ؟ . وكيف ظلت المرأة عمر البشرية بعض متاع الرجل وتابعاً له مع أنها مانحة الحياة وهى أم البشر جميعاً ؟ . كيف لم تشفع لها الآلام الساحقة التى تجتاح جسدها وهى على وشك إهداء الإنسانية طفلا جديداً .. فى أن يكون الرجل عطوفاً بها حنوناً ؟

ولكن مع ذلك فأول سؤال يلقيه الرجل .. ذكر أم أنثى ؟ .. لماذا ألوم

الرجل ؟ . ولماذا لا أسأل نفسى كيف قبلت المرأة أن تكون بعض متاع الرجل ؟ ولماذا رضيت أن تكون تابعاً له ؟

مرة أخرى لماذا لم تنبع من النساء عبقريات كما نبغ من الرجال ؟ . لماذا سوى قلة من النساء المتفوقات ؟. ما السبب ؟ ما السبب .. ؟

نظرت إلى شريفة وهى ترضع طفلتها وقلت لها ..

– يجب أن تبدئى « رجيما » قاسياً .. لقد ازداد وزنك إلى الضعف ..

ابتسمت شريفة بحنان إلى طفلتها وقالت :

– كل شىء فداء (مها) ..

– وأضافت وهى تقبل اليد الصغيرة المتعلقة بثديها ..

– لقد أراد بهاء ألا أرضعها حتى أستعيد رشاقتى سريعاً .. ولكنى متمسكة بإرضاعها . إنه شعور ممتع أن أحس أنها تنمو عن طريق ثديى الملىء باللبن .. قلت وقد انتقل إلى حنان الأمومة الموجود فى كل أنثى ..

– هذا شعور بديع يا شريفة ولكن ألا يهمك على الإطلاق أن تضيعى سنتين كاملتين من شبابك .. سنة فى حملها وسنة أخرى فى إرضاعها واستعادة رشاقة جسدك ؟

أجابت شريفة بيقين ودون تردد :

– لقد خلقت لأكون أماً .. وهذا يكفينى ..

لقد أجابت شريفة على سؤالى الحائر .. إن المرأة تكتفى بدورها كأم .. كآلة حياة .. ولا يهمها أن تضيع سنوات عمرها فى إنجاب الأطفال ..وأن تضيع حياتها بلا عمل ..

إن لحظة رؤية مولود جديد يتضاءل أمامها أى عمل ..

ولكن أنا .. هل أكون مثل شريفة .. مجرد أم تحبل وتلد وتكتفى بأن

تمنح الأجيال أطفالا ؟ . لا مستحيل .. أنا أريد أن أعمل .. لا غنى للشخص الذى يحترم نفسه عن العمل .. ليس عملا روتينياً لا إبداع فيه .. وإنما عملا بناء خلاقاً أحبه وأضيف به جديداً من نفس كل يوم .. لماذا تركت الرسم ؟. إنه طريقى الصحيح . كيف تركته واخترت وظيفة روتينية ؟ . إن طريقى الصحيح فى الرسم فى التعبير ، فى محاولة إيصال ما أفكر فيه إلى الآخرين .. من الغد سأقدم استقالتى .. وسأذهب بأوراقى إلى كلية الفنون الجميلة .. سألتحق بها لأبدع فناً ..

كم أحببت شريفة .. فهنا فى بيتها وعن طريق مولودتها وجدت طريقى بعد طول ضياع وحيرة .. واكتشفت أنى أختلف عن معظم النساء .. لست مجرد أنوثة تبحث عن رجل وطفل وبيت تستظل تحته .. وإنما أنا إنسانة لى فرديتى وكبريائى .. ولاهنا لى فى هذه الدنيا إلا إذا حققت ما يبرر وجودى ..

كلمت أحمد وطلبت مقابلته .. كنت أقاوم حبه فى قلبى لأنى كنت أخاف أن أكون ملتصقة به التصاقى السابق بأخى . ولكنى الآن لا أخاف شيئاً .. لقد وجدت طريقى ..

إن داخل كل منا ضعفاً يلقى بنا فى الحب ليذوب كل منا فى الآخر ويفقد فرديته .. وقد تخلصت أنا من ضعفى وبدأت أسترد نفسى .. وبقى أن يتخلص أحمد من عدائه الطبقى لى .. فى طريقى إليه لم يعاودنى الشعور بالذنب .. أنا لا أصنع خطأ .. إن من حقى أن يكون لى صديق مادمت أعرف حدود حريتى فأنا الآن كائن حر مستقل .. ولكن ترى هل يحترم أحمد المرأة احتراماً حقيقياً ، وهل استطاع حقاً أن يتخلص من ريفيته ؟ . لم تعطنى تصرفات أحمد طوال معرفتى به جواباً صريحاً على سؤالى ..

كان لقاء فاتراً .. ولاحظ أحمد أن مشاعرى قد تغيرت .. وسررت سروراً خبيثاً لهذه الملاحظة ..

لاشك فى أنى تغيرت كثيراً .. فقد بدأت أسترد نفسى التى ضيعتها بين ذراعيه. بدأت أشعر لأول مرة أننا شخصان اثنان .. جسدان وروحان .. ولسنا جسداً واحداً وروحاً واحدة ..

رجعت إلى الفيلا وفى قلبى حب لكل شىء .. للسماء الرحبة .. للأرض الواسعة ، وللطرق العديدة التى فتحت أمام بصرى .. تلاشى الضباب الذى كان يحجب عن عينى الرؤية وشعرت أنى أرى لآفاق بعيدة ..

كان التغيير الذى يحدث بداخلى أشبه بجنين على وشك الميلاد ..

وكانت مشاعرى مزيجاً من القلق والرهبة .. والفرحة بالحرية التى عادت إلى فى نزولى الدرجات وأنا خارجة لزيارة نادية .. خرق أذنى وأنا أعبر البهو حديث تليفونى بين أبى وأحد أصدقائه ..

ــ نعم أقفلوا الجريدة .. واعتقلوا رئيس التحرير .. وكذلك المحررين السياسيين معه .. هذا حسن .. يجب أن يذوقوا السجن ليتعلموا الأدب .. هؤلاء قوم لا يتعلمون إلا بالضرب .. نعم يا أخى كل المحررين سمير عبدالوهاب وأحمد إبراهيم ..

وقفت مذهولة أكذب أذنى وأتهمها بالصمم .. بل لقد خيل إلى أنى أصبت بالصمم فعلا .. وخرق أذنى صفير يشوش على بقية كلامه .. أخذت إلى شفتيه وهما تنفرجان وتنطبقان دون أن أسمع كلماته أو أفهم ما يقول بعد ذلك .. جريت أهبط إلى الحديقة وأخذت العربة إلى نادية ..

صعدت إليها بعينين زائغتين وعقل مشوش.. صاحت عند رؤيتى ..

ــ ماذا بك يا نجلاء .. ماذا جرى ؟

أخذتنى وأدخلتنى إلى حجرتها الخاصة .. وهناك ارتميت على الفراش أبكى بحرقة ..

قالت نادية فى هلع :

– ماذا جرى .. ماذا حدث ؟

صرخت فيها :

– نادية لقد اعتقل أحمد ..

– أعتقل كيف عرفت ..

– من أبى .. نادية ، سيضربونه يا نادية .. سيجلدونه .. لقد تعذب أحمد طوال حياته وليس به قوة على تحمل المزيد .. إنه مريض لن يحتمل .. أنا خائفة .. خائفة ..

– لا تتركى نفسك لهذه الأوهام .. ولكن هل أنت متأكدة ؟

– كيف يلتبس على اسمه .. وهل أسمع من كل الأسماء .سوى اسمه .. نعم هو أحمد إبراهيم المحرر السياسى ..

– غدا يخرج يا نجلاء لن يحجزوه سوى يومين أوعلى الأكثر ثلاثة أيام ..

– إنه لن يحتمل سجن يوم واحد ..

ظللت عند نادية وقتاً طويلا أبكى.. وأخيراً استجمعت نفسى وتركتها إلى منزلى وهناك خيل إلى أنى أهذى وأن هذا الواقع الذى أعيشه غير حقيقى ولايمكن أن يكون حقيقياً فكيف يمكن أن يكون أحمد سجيناً وأنا هنا جالسة فى حجرتى مثلى فى أى يوم من أيامى العادية ..ماذا بيدى ؟ .. ماذا يمكن أن أفعله من أجل أحمد ؟ لا شىء .. لا شىء سوى إحساس سلبى بالكراهية والحقد والثورة على نظام سياسى فاسد وملك ظالم ..

مرت ثلاثة أيام كاملة بلانوم ولا أكل ولا حياة ..

فى اليوم الرابع وفى الرابعة سمعت الرنين بجوار فراشى فى الميعاد المعتاد هل يمكن أن يكون أحمد ؟ . غير معقول .. ولكن رغم يأسى كان هناك أمل ينمو فى قلبى .. مددت يدى إلى التليفون وقلت ..

ـ آلو ..

جاءنى صوت أحمد :

ـ نجلاء ..

لم أصدق أذنى .. غير معقول أن يكون صوته .. لماذا تدس على أذنى الأصوات ؟ . جاءنى الصوت مرة أخرى :

نجلاء هل تسمعينى ؟

صرخت ..

ـ أحمد غير معقول .. قل إنك أحمد ..

ـ أنا أحمد يا نجلاء .. حبيبتى أنا بخير ..

بخير .. يا لها من كلمة عذبة .. أحمد بخير .. حبيبى بخير وهو على الطرف الآخر يكلمنى ..

ـ أوحشتنى يا نجلاء .. ولكنى لن أستطيع أن أراك .. لأنى مراقب..

ـ هذا شيء لا يهمنى .. سأراكَ فى الخامسة فى الكازينو..

ـ نجلاء .. أنت لا تفهمينى .. هل سمعت ما أقوله ؟ . أنا مراقب..

ـ سمعت يا أحمد .. ولكننى سأراك فى موعدنا ..

وضعت السماعة .. وقمت أرتدى ثيابى .. إن حبيبى بخير .. أنا أعرف لأول مرة معنى السعادة ..

قبل موعدى كنت هناك أمام الكازينو ، رأيت أحمد واقفاً أيضاً قبل قبل الميعاد . خطوت إليه بسرعة .. أمسك بيدى وقبلنى بعينيه .. وسأل

وهو يضغط ضغطاً قوياً على يدى : .

ــ لماذا أتيت ؟

ــ لأنى أحبك ..

ــ هذا خطر عليك ارجعى ..

واحتضنت ذراعه بذراعى .. وفتحت صدرى للنسيم أستنشقه بلذة :

٢٩

ومر شهر .. وعاد أحمد للكتابة من جديد .. قال بصوت ساخر ..

– لقد غفروا لى دفاعا عن الحق وسمحوا لى بالكتابة ..

وكان بصوته مرارة .. كان يبدو أن السجن قد زاده صلابة وإصراراً.. وأحببت فيه هذا التحدى ..

٣٠

دق جرس التليفون وتسلل إلى أذنى صوت نسائى لا أعرفه ..

ــ آلو .. نجلاء هانم ..

ــ نعم .. أنا نجلاء ..

ــ لقد كلفنى أحمد أن أتصل بك لأخبرك أنه فى المستشفى . .

ــ فى المستشفى .. لماذا ؟

ــ هو بخير .. ولكنه فى حاجة لفحص كامل ..

قلت بسرعة :

ــ سأكون عنده بعد دقائق ..

وضعت سماعة التليفون .. وجريت إلى الدولاب فشددت حقيبة يد .. غيرت شبشبى بحذاء وجريت أهبط الدرجات .. ماذا بأحمد ؟ .

أخذت تاكسى وأسرعت إلى المستشفى .. ووجدت أحمد راقداً حجرة بيضاء بلا لون ممدوداً فى فراش صغير وسط البياض.. شاحب حزين .. فى عينيه استسلام وخضوع وقد انطفأ بريق التحدى من نظراته.. كرهت اللالون لأنه ترادف بسرعة فى ذهنى مع معنى المرض والاستسلام.. أنا لا أحب أحمد خاضعاً .. أنا أحبه قائداً شاهر السلاح فى وجه كل عدوان..

خطوت إليه ومددت له يدى .. ولم أستطع الكلام .. توقف لسانى ..

وتكلمت عيناى بدموع الحب .. فلمْ أستطع من الخوف عليه سوى أن أبكى ..

قبلتنى عيناه .. وعانقت رموشه خداى وطوقت أنفاسه وجهى فبعثت الدفء إلى قلبى .. ولكنه تكلم بيأس عجيب ..

– نجلاء يجب أن نواجه الحقيقة .. أنا مريض .. ومرضى لا شفاء منه ..

– كيف ؟

– هناك عملية جراحية ولكنى لن أترك أحداً يشق جسدى ويعبث به ..

أكمل بيأس أكثر :

– هناك قدر أقوى من إرادتنا ومن حبنا للحياة ..

– مستحيل .. مستحيل ..

– نعم .. يا نجلاء .. إنها الحقيقة .. سأظل مريضاً يسحب منى المرض صحتى يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر حتى أصبح هيكلا لا يتحمل لفح الهواء ثم أموت .. وأفارق معشوقتى الخالدة .. الحياة ..

تحشرج صوته فأدار وجهه ودمعت عيناه .. احتويت وجهه بين كفى وقلبى يتمزق حزناً ..

أجهشت بالبكاء أنا الأخرى واستسلم أحمد لضماتى ودس رأسه فى صدرى كأنه طفل صغير يبحث عن أمان ..

سمعت من صدرى همساته .. كان قلبه يوشوش لى .. حبيبتى .. امنحينى حنانك .. ولكن ما أقل ما أعطيت وأكثر ما أخذت من ذلك الفيض الغنى من حنانه هو .. كنا فى قمة عالية من التعاطف حينما سمعته يتكلم بمثل ما فكرت فيه عن الخوف .

– هل حدثتك عن الخوف يا نجلاء ؟ . لقد صاحبنى منذ طفولتى .. وبعث

الشك والتوجس والريبة إلى قلبي .. وأحال كل الأشياء وكل الناس حولى إلى غيلان، دائماً كنت أشعر أنى بلا مأوى لأن بيتنا الطينى كثيراً ما تهدم من أثر المطر .. كنت أخاف من الجنيات والعفاريت .. وكنت أهرول فزعاً حينما أتأخر فى الحقول إلى ما بعد الغروب .. وعندما دخلت المدرسة كنت أخاف عصا المدرس .. ثم أصبح خوفى الأكبر أن أحرم من التعليم.. وحينما اكتشفت المرض الخبيث الذى يكمن فى جسدى سيطر على خوف الموت .. والفناء ..

– ولكن يا حبيبي لماذا لا تجرى العملية .. ؟

– الطب .. طفل صغير مازال يدق أبواب المجهول .. هناك أمراض كثيرة لم يجد لها الطب حلا ..

– لماذا تتكلم بهذه النغمة اليائسة .. أنت تمزق قلبي .. ليتنى كنت المريضة بذلك ..

– لا تقولى هذا .. ليس من حقك أن تقولى هذا ..

– ولكن لماذا تمرض أنت بالذات .. أنت الذى تعطى الدنيا فنا وتقود عقول الناس إلى التفكير ؟ .

– أنت أعطيتنى ماهو أجمل من الفن .. لقد أضأت لى الطريق لأتعرف على نفسى .. كما أضأت لك الطريق لتعرفى نفسك ..

– أنت أيضاً .. كلانا كان نقطة بد بالنسبة للآخر .. لقد بدأنا نعيش ونتذوق الحياة منذ عرف كل منا الآخر .. يا حبيبي .. أنت حياتى..

راح أحمد يربت على شعرى ويطمئننى .. ويسرى عنى .. هو يفعل ما يجب أن أفعله أنا ..

قلت :

– ليتنى بمثل قوتك يا أحمد ..

– روحى قوية .. ولكن مادتى ضعيفة .. أنت تستطيعين أن تكونى قوية أيضاً..

– أنت إرادتى .. إنى أدين لك بكل شىء .

– لا دين لأحد على أحد .. إنه ديننا نحن الاثناء على الحب ..

نظر إلى ساعته وقال ..

– يجب أن تذهبى الآن حتى لا تتأخرى ..

– لا أريد أن أذهب ، إن مكانى هنا بجانبك ..

– بل ستذهبين الآن ..

– سأحضر فى الصباح إذن ..

– وعملك ؟

– هل نسيت ؟.. لقد تركته ..

– وماذا قال أبواك ؟

– فضلا دراستى على العمل ..

انحنيت فقبلت وجنته .. واحتوى هو وجهى لحظة ونظر فى عينى وقبلهما. تركته ومضيت إلى بيتى وأنا حزينة غضبى من الحياة .. لماذا نتعذب فى هذه الدنيا .. ولماذا نولد لنمرض ونمرض ونموت ؟ . أهى نكته سخيفة .. أم أن هناك حكمة وراء كل هذا ؟ . وما هى تلك الحكمة ؟ .

لم أستطع النوم .. جلست أفكر هل يمكن أن يموت أحمد حقاً ؟ وهل يمكن أن يرحل هو الآخر ويتركنى ؟ مستحيل .. مستيل ..

للمرة المليون لماذا نحيا .. لماذا نتعذب .. ولماذا نموت ؟

ظللت يقظى طوال الايل .. وفى لحظة إغفاء عند الفجر هاجمتنى أحلام مزعجة .. أنا فى مكان كل ما فيه أبيض .. ثم يتسلل اللون الأسود فيطمس

اللون الأبيض .. ويبقى لون مختلط من نور وظلمة .. وأنا ضائعة بينهما لا أصل
إلى نهار ولا أغرق فى ليل ..ولكنى أقاوم وأجرى إلى شبه باب فى المكان
أريد الهروب من هذا الحايط .. انتصب أمامى فجأة كائن عملاق لا ينظر
إلى ولكن يسد الطريق إلى الباب . أجرى إلى باب آخر فيلاحقنى المارد ..
استجمعت شجاعتى ووقفت أصرخ فيه .. استيقظت من النوم وأنا أصرخ ..
ضايقنى استيقاظى دون أن أصل إلى نتيجة ..

٣١

فى العاشرة كنت فى حجرة أحمد فى المستشفى .. تهلل وجهه بالفرحة لرؤيتى ..

قلت بابتسام :

ـ هل زارك الطبيب يا أحمد ؟ .

ـ نعم ..

ـ وماذا قال ؟

ـ قال .. إنى لو سافرت إلى سويسرا لكان الأمل فى شفائى كبيراً ..

ـ إذن ستسافر يا أحمد .. وترجع بصحة جيدة ..

ـ نجلاء لقد تعودت طوال حياتى ألا أضحك على نفسى أبداً .. ودائماً كان هناك إحساس داخلى يتحدث إلى ويهمس إذا كنت سأنتصر .. وهو صامت الآن وصمته يخيفنى ..

ـ ولكن ستجرى العملية يا أحمد ، أليس كذلك ؟

ـ لا يا نجلاء لا فائدة ..

ـ لا تقل لا فائدة يجب أن تجريها ..

ـ بل إنى سأموت .. أجريتها أم لم أجرها ..

ـ هذا هراء .. لست أنت الذى تقول هذا الكلام .. ستسافر وستجرى

العملية . لماذا أنت صامت يا أحمد ؟ . من أجل حبي لك .. يجب أن تعالج نفسك ..

أمسك بوجهي في حنان وقال بوجد ..

ـ من أجل حبك سأجرى العملية .. أنا أريدك .. أريدك ..

ـ حبيبي سأنتظرك .. وستذهب وتعود بالسلامة ..

ـ أنت تعطينني أملا مجنوناً ..

ـ بل أملا عاقلا .. وسأنتظرك يوم حضورك فى المطار..

ـ أهو وعد ؟

ـ إنه وعد بلقاء وبقبلة وبحياة ..

ـ لقد أصبحت تجيدين التشجيع ..

٣٢

سيسافر أحمد وأنا أخاف أن تنتكس روحى بعد سفره فلا يعود لحياتى قيمة بدونه . فهو الذى يعطيها المعنى .. ولكن لا مبرر لهذا الخوف .. لقد انتصرت على نفسى .. أنا قوية الآن .. ألم أقل إنى أستطيع أن أسيطر على كل شىء حتى على حبى لأحمد ..

وسافر أحمد .. وبعد عنى .. أياماً وشهوراً طويلة عشتها دون أن يبدو لطولها نهاية ..

كان كل يوم يمر بدونه سباقاً مريراً أسابق فيه نفسى .. أسابق أشواقى دقيقة بدقيقة حتى ألهث آخر الليل وأقع من التعب ..

وأيقنت أنه لا مفر من أن ترتبط حياتنا .. وفكرت أن أعرض عليه الزواج عند عودته لماذا لا يكون لنا الحق فى أن نفصح عن رغبتنا بالزواج لمن نحب كما يفعل الرجل ؟ أليست هذه هى المساواة التى يقولون عنها ؟ .

ولا أدرى كم من العذابات والأشواق مزقتنى حتى جاءت تلك اللحظة الوردية التى رفعت فيها نادية التليفون لتهمس إلى ..

— نجلاء .. عندى لك أعظم خبر .. سيصل أحمد اليوم فى الرابعة تماماً .. فى مطار القاهرة ..

٣٣

فى الثالثة تماماً كنت أنا ونادية فى المطار ننتظر حضور الطائرة القادمة من سويسرا ..

توقف الزمن عن دورته المعتادة ودخل فى توقيت الانتظار البطىء .. عيناى معلقتان بساعة الحائط أمامى .. عقاربها بطيئة .. تكاد لا تتحرك..

مرت خمس دقائق .. ونادية تتكلم عن الجو .. عما اشترته من أقمشة.. عن ضيق حذائها الجديد .. عن لونه الذى تحبه .. وعن البابيونة المثبتة فى طرفه ولونها المختلف عن لون الحذاء .. وعن كعبه الرفيع المديب .. وعن جلده الناعم . مرت عشر دقائق .. دخلت فى حديث مع نادية دون أن أفهم ما أقول أوما تقول هى فقط يمضى الوقت .. ومرت خمس دقائق أخرى .. جمعتنا لحظات صمت .. ومرت خمس دقائق أخرى.. عادت نادية للكلام من جديد .. ولم أسمع ماتقول تلك المرة عيناى ما زالتا معلقتين على ذراعى الزمن الكسول .. الوقت يزحف .. يتلكأ .. ويغفو .. ينام .. مرت خمس دقائق أخرى .. خمس وعشرون دقيقة مرت .. لماذا لا تمر خمس الدقائق الباقية ؟ . لن أنظر إلى الساعة .. لتتسكع الثوانى كما تريد .. ولكنى لن أنظر إليها ..

ظللت أشغل عقلى بأمور كثيرة .. فكرت فى أحمد .. فكرت فى نفسى

فكرت فى ميعاد تقديم أوراق إلى الكلية .. فكرت فى قراءة كتاب .. ثم ارتفعت عيناى رغماً عنى إلى الساعة .. كل تفكيرى هذا لم يستغرق سوى دقيقة .. لن أنظر إلى الساعة مرة أخرى ولن أسمح لعينى أن تتوسلا بذل إلى الزمن ..

قمت وغيرت مكانى .. ظلت الساعة تعذبنى حتى بعد أن أعطيتها ظهرى .. سمعت أزيز طائرة يقترب حتى ملأ صوته المطار كله وهز زجاج النوافذ .. جريت أنظر من النافذة إلى طائرة أحمد .. جاءت نادية خلفى تقول إن الساعة مازالت الثالثة والنصف .. ولكنى لم أسمع كلامها .. أنا أشعر أنها طائرة أحمد .. أعلنت المضيفة الأرضية أن الطائرة حضرت قبل موعدها بنصف ساعة .. أكملت المضيفة .. قامت الطائرة من سويسرا فى الساعة كذا .. ولم أسمع كلمة . جريت أهبط الدرجات إلى أرض المطار ووقفت أحدق فى الطائرة وهى تهبط ثم وهى تلف أمامى .. وهى تتوقف .. ويفتح بابها ورحت أحدق فى الهابطين .. وقلبى يخفق فى صدرى ويعلو صوته على أزيز محرك الطائرة .. ونزلت سيدتان فى المقدمة وفى أثرهما رجل عجوز وآخر شاب .. أين أحمد ؟ . هبط رجل بمعطف قاتم .. أين أحمد ؟ راحت عيناى تنظران إلى ذلك الرجل من جديد .. يا إلهى إنه أحمد .. أحمد بلحمه وعظمه يهبط الدرجات وقد ازداد نحولا وشحوباً وعيناه تبحثان عنى .. رفعت يدى أشير له .. رآنى ، تهلل وجهه بفرحة غامرة ورفع يده يشير إلى .. أسرع إلى حتى لمس أصابعى من خلال السلك الذى يفصل بيننا .. هاهو أحمد أمامى حقاً ويده تلامس يدى .. الحمد لله ..

مضى هو ليخلص حقائبه من الجمرك وارتميت أنا بين يدى نادية .. أبكى ، أبكى من الفرحة ..

انتهى أحمد من إجراءات الجمرك وأخذ بيدى ويد نادية وخطونا إلى عربة أجرة .. ومضت بنا العربة تخترق الصحراء .. لم أعلم من قبل أن الصحراء ممكن أن تكون بهذا الجمال .. إنها ليست صحراء .. إنها جنة مزروعة بالأحلام ..

٣٤

التقيت بأحمد صباح اليوم التالى .. نظرت فى عينيه .. كأن بهما شيئاً قد تغير .. شعاع النور الهزيل الذى كان يرسل ضوءه كلما تكلم .. انطفأ ..

قال أحمد بنبرة حزينة :

ـ أوحشتنى يا نجلاء ..

لماذا نبرة الحزن العميقة تلك ؟

ـ أتعلمين أنى لم أجر العملية ؟

ـ حقاً .. لماذا ؟

ـ لقد أعطونى نظاماً علاجياً وقالوا إنى لن أحتاج إلى إجرائها .. وأن صحتى ليست بالسوء الذى أتصوره .. ولكن يجب أن أعرض نفسى عليهم مرة أخرى بعد العلاج ..

ـ هذا خبر عظيم يا أحمد .. لقد انتهى الكابوس إذن ..

ـ نعم ..

ـ أنا سعيدة بل أكثر من سعيدة .. أحمد لقد فكرت كثيراً طوال مدة سفرك وأحسست أنى لن أستطيع العيش بدونك .. أحمد لماذا لا نرتبط ؟

ــ نجلاء .. أيتها العزيزة لن نستطيع ..

ــ لماذا ؟

ــ لأسباب كثيرة ..

ــ قل سبباً واحداً ..

ــ أنا لست جديراً بك .

ــ لا تقل هذا .. وقل السبب الحقيقي .. وهو أنك لم تحبني قط ..

ــ هذا ليس صحيحاً ..

صمت .. ولم يتكلم .. وكان صمته مؤلماً جارحاً ثقيلا ..

ــ نجلاء لن تكون زيجة مناسبة لكلينا ..

انهمرت الدموع من عيني دون إرادتي .. وربت هو على يدي ..

ــ كيف تقول هذا الكلام بعد أن امتزجنا في كل شيء وأصبحنا شخصاً واحداً ؟ .

ــ ليس هناك امتزاج كما تتخيلين ، مهما قلنا سنظل اثنين .. مهما فعلنا سنظل اثنين .

تساقطت سعادتي مع كلمات أحمد مهشمة إلى الأرض .. أنا التي حلمت أن أعيش معه أيامي كلها . كل أيام شبابي وأبد حياتي .. ماذا جرى لأحمد؟ إنه أحمد آخر .. لا أعرفه ، أين حنانه ؟ .

عاد يتكلم .. لقد عشنا لحظات حلوة ونسجنا معاً أحلاماً جميلة ..

إن كل كلمة يقولها تحطمني أكثر .. إنه يشعرني لأني كنت أنسج معه نسجاً عنكبوتياً للذكرى .. وأن الأيام التي عشتها سيغطيها تراب الزمن وستمحوها يد النسيان ، لقد جعلني أشعر من كلامه أننا غرباء وأننا كنا نلتقي ونفترق عبر أسوار وأبواب مغلقة ولم نصل حتى إلى أن تتلامس أيدينا .

٣٥

بدأ أحمد يسترد صحته بمفعول الدواء الجديد ورأيت الحياة تعود إلى أوصاله الذابلة .. ورأيته يورق أمامى ويتورد بالصحة والعافية .. أما عيناه فكانتا تزدادان ظلاماً وحزناً .. كان يزداد غموضاً يوماً بعد يوم .. وينسحب من حياتى بالتدريج .. ويبعد ويمعن فى البعد .. وكان يجب أن أفعل شيئاً حتى لا أموت ففرضت على نفسى البعاد ..

قررت السفر عند جدى فى العزبة ..

وهناك فى الريف الذى أحبه وسط الحقول الخضرة اللانهائية .. وسط الطبيعة المصرية الصريحة البسيطة .. واجهت ألماً عاتياً جباراً .. واجهت ألم الفراق .. ظللت ساعات أمشى فى الحقول وأبكى .. أتذكر حنانه وأبكى .. أتذكر اهتمامه وأبكى .. وأتذكر قسوته وأبكى .. كنت فى حاجة للحركة حتى لا أتجمد ، حتى لا أموت ..

ركبت الحصان وألهبته بالعصا .. فجرى بى وانحسرت الأرض من حولى بسرعة وصفر الهواء فى أذنى وشد شعرى إلى الوراء .. أصبحت أنا والحصان كتلة واحدة تخترق المجهول .. مجهولا من الخطوط والمساحات.. والعواطف. أنا قوية ولن أضعف لقسوة أحمد .. سأهجره أنا .. تساقطت دموع جديدة عند فكرة الهجران .. ولكننا سنفترق .. صرخت .. طر يا نمرود ..انطلق..

لا تتمهل سنفترق .. صرخت بالكلمة .. لأقنع بها نفسي وتساقطت أصداؤها على الأرض ..

وفى المساء حملتنى العربة عبر طرقات زراعية عديدة متربة وتحولت أنا والعربة والليل إلى قطعة سواد .. وتلونت السماء .. والأرض .. وقلبي .. بالسواد .. وتحولت إلى جثة بلا أمل .. بلا نبض .. بلا رغبة فى شيء ..

٣٦

شقشقت عصافير عديدة فى الفجر عند نافذتى فأيقظتنى من نومى .. صحا جسدى ، عيناى .. أذناى .. أطرافى كلها .. كانت تتحرك ، تسمع وترى ، ولكن قلبى كان يعانى سكرات الموت ..

قضيت الصباح فى الفراش .. وجاء جدى إلى حجرتى ملهوفاً يتساءل عما بى وكاد يرسل فى طلب طبيب كى يرانى .. ولكنى أكدت له أنى بخير ، فقط متعبة ، مرهقة من العمل والسفر .. ثار بشدة على والدى لأنه سمع لى بالعمل الذى أدى إلى إرهاقى كل هذا الإرهاق .. ثم جلس غاضباً بجوارى على الفراش .. وبدا حبيباً إلى قلبى وكدت أربت على وجنتيه ملاطفة فقد بدا لى طفلا غاضباً طريفاً فى غضبه ..

خرجت بعد الظهر من الفيلا .. نزلت الدرجات إلى الحديقة الواسعة .. ظللت أمشى وأمشى ووجدت نفسى من جديد أبكى .. وأبكى .. وأحسست بالدموع وقد غسلت أشجانى وكأنى حقل حنطة بعد يوم مطير .. وقد أصبحت سنابله نظيفة لامعة منداة . وداهمنى النوم فجأة . ثقل رأسى وشد جسدى إلى الأرض فتداعيت تحت شجرة عجوز وسقطت فى غيبوبة غير كاملة .. نائمة يقظة أحلم وأشعر بشكل غامض بما يجرى حولى ..

أحمد يبدو فى طريق غريب متلاشياً فى البعد .. ولا سبيل إلى الوصول

إليه . نباح كلاب يصل إلى أذنى .. والشمس تخطو آخر خطواتها نحو المغيب.. وبضعة عصافير تزقزق فى إيابها إلى أعشاشها .. والمزرعة تلفها نسمة باردة ترعشنى والسحب تتلون بألوان ثقيلة .. رمادية .. بنفسجية وسوداء ..وتبدو مطرزة بماسات النجوم وأنا غريقة فى بحار أحزانى .. شبه نائمة .. لا أريد أن أصحو وليست عندى المقدرة على انتزاع نفسى من تلك البحار اللزجة.. من هذا الموت المؤقت .. مسحت على وجهى وأنا أتساءل أين أنا .. الدنيا ظلام .. قمت واقفة وأسندت جسدى إلى جزع الشجرة وتذكرت تدريجياً كل شىء .. وكانت أمطار الدموع التى انهمرت من عينى قد أنضجت حزنى فأصبح ألماً ثقيلا لاصقاً بى وكأنه قطعة من جسدى .. وعاد فكرى ينسج عنكبوتاً من الأفكار الغريبة ..

فكرت وأنا أجتاز سور الحديقة فى اليوم التالى إلى الحقول .. أن الحياة هنا تبدو وكأنها بلا قضبان .. .. وكأنها بلا زمن .. بلا عيون .. بلاألسنة.. بلا فضول .هنا بساطة شديدة وسلام .. وتمنيت لو أعيش هنا .. حيث الهدوء .. والصمت وحيث لا شىء يسمع إلا صوت القلب ..

لقد مضت سنوات عديدة منذ كنت هنا آخر مرة .. ومع ذلك يبدو أن كل شىء مازال على حاله البيوت مازالت طينية كما هى والوجوه صفراء .. والأطفال جالسون على الأرض بجوار الجدارن كأنهم نفس الأطفال الذين رأيتهم منذ عشرين سنة .. كأنهم لم يتحركوا من أماكنهم .. ولم يأكلوا من يومها .. ولم يغيروا ثيابهم الباهتة .

نبات الطفولة مهمل بجوار الحائط .. الذباب يأكل من وجهه والرمد يسمل عيونه البريئة ويطفىء جذوة الذكاء من أحداقه إلى الأبد .. لا جديد.. الحياة لم تتغير ولكن الذى تغير هو أنا .. أنا التى تغيرت .. كلمات أحمد هى

التى غيرتنى .. هى التى جعلتنى أرى هذا القبح الذى كنت أمر به دون أن أراه .. لأنى لم أكن أريد أن أراه ..

هرول صالح الجنايني ناحيتى .. وانحنى على يدى يلثمها .. فأسرعت بسحبها ورأيته يلتفت من خلفى ويسب الأطفال ويأمرهم بالابتعاد .. ورأيت مجموعة من الأطفال تتقافز ورائى .. وفهمت أنهم كانوا يتقافزون طوال ورائى ليتفرجوا على ويقلدوا مشيتى ترى كم من الحقد أثرت فى تلك الصدور الصغيرة بمشيتى هذه ؟ ليتنى لم أمش على الإطلاق ..

كيف تبادر إلى ذهنى أن الحياة هنا بلا قضبان .. ؟ الحياة هنا منفى .. بل سجن كبير .. وكل الذين يعيشون هنا سجناء الفقر مدى الحياة ..

أصر عم صالح على أن أشرف بيته بزيارتى لأتناول كوب شاى .. قبلت دعوته لأنى شعرت أن ذلك سيسعده ..

أمام بيته الطينى سبقنى إلى الدخول ليوسع لى الطريق وراح يرحب بى بكلمات طنانة رنانة ..

هرول صغيران من مكان ما فى القاعة .. واختبأ خلف الزير وراحا ينظران ألى بفضول وجاءت أمهما ترحب بى مخفية نصف وجهها خلف طرحتها السوداء فى حرص خشية أن تفاجأ بوجود رجل معى .. واقتربت منى وربتت على كتفى تعيذنى بالله وبالرسول وبأم هاشم من العين .. وشر العين.. وشدتنى إلى أحضانها بود ومصمصت شفتيها بجوار خدى فى قبلات ساذجة.. وشممت وأنا فى أحضانها مزيجاً من روائح دقيق وحلبة ونعناع وتراب..

طلب منها زوجها أن تصنع لنا الشاى .. تباطأت وأرسلت لعينى زوجها نظرة ناعمة .. نظرة أمرأة تعلم مقدار مكانتها فى قلب زوجها .. وأدهشتنى أن تنمو نظرات الغزل وسط كل هذا الفقر..

انسحبت المرأة إلى ركن القاعة لتعد الشاى وراحت تستعيد ذكريات طفولتى فى هذا الريف الذى يحوطنا ..

ورجعت مع صوتها الممطوط .. إلى ذكريات طفولتى .. وفجأةأحسست ثوبى يشد ، والتفت .. ورأيت عينين براقتين ويد صغيرة سمراء تداعبنى ثم تختفى بسرعة خلف الزير ورائى..

أدهشنى هذا الصغير الطريف .. الذى لم يرهبه شكلى القاهرى ولا آيات التبجيل التى يضفيها أبوه على .. لقد انجذب إلى بإحساس فطرى بالحب.. وهو واثق أنه سيجد صدى لشعورة ..

انتهت المرأة من صنع الشاى.. وقدمته لنا وهى تردد أنه ليس «قد المقام» وتسلل الصغير الذى كان يداعبنى خطوة .. ثم خطوة .. حتى أصبح بجوارى تماماً فداعبت خده وصوبت نظرة إلى عينيه الماكرتين .. فابتسم .. بينما شخط فيه أبوه : اختش ياواد .. ولكن الصغير ظل مستكيناً بجانبى .. وأحسست بحب جارف يملؤنى نحوه .. وبأمومة مفاجئة تجتاح قاى .. ترى ما هو مستقبل هذا الصغير ؟

تلفت حولى إلى مصيره المكتوب على الجدران السوداء .. على الأرض التى ينام عليها .. على وجه أمه التعس .. وجيوب والده الخاوية .. ماذا أستطيع أن أصنعه من جل هذا الصغير ؟ ماذا أستطيع ؟

أستطيع أن أنفق عليه وأعلمه .. ولكن ماذا بشأن أخيه .. ؟ وماذا بشأن باقى أقرانه ؟ . وإذا أنشأت مدرسة .. ماذا يكون شأن القرى الأخرى؟ وماذا عن الفقر والتعاسة فى العالم أجمع ؟

كنت أسمع كلمات أحمد تتجسد لى فى كل خطوة .. حقيقة لا سبيل إلى دفعها . كان معى .. كان أمامى .. كان حولى .. فى ذلك الحزن الكالح الترابى ..

ولكنه تغير .. لم يعد يحبني وأنا لا ألومه .. أنا أحترم حرية عواطفه حتى لو كنت ضحيتها .. إن العواطف هي الشيء الوحيد الذي لا يمكن اصطناعه.. إنها نسيج شفاف ينسجه قلب طفل أرعن .. ذي أهواء فكيف ألوم طفلا على طفولته .. ولكني أتألم برغم ذلك .. بل أموت ..

كل هذا المنطق لا يقنعني .. لا يقنع قلبي ..

ولا راحة لي إذا استطعت أن أبتر هذا القلب .. وأعيش بعقلي وحده .. بلا حب ..

كم من الأيام .. بل كم من السنين .. بل كم من الأجيال أنا في حاجة إليها لأقوم بتلك الجراحة ..

٣٧

رجعت أخيراً إلى القاهرة لأواجه حقيقتى ..

وقررت ألا أتصل بأحمد .. يجب أن أنسحب من حياته مثلما انسحب هو من حياتى .. ولكن ما حيلتى .. فى حجرتى التى طالما شهدت لهفتى ، واضطرابى وأنا فى طريقى إليه .. ومرآتى التى رأت النجوم تسطع فجأة فى ليل عيونى لأنى سأراه ..

ما أقسى كل ذلك .. ولكن برغم كل شىء هذا الحب انتهى .. وليمت قلبى فى صدرى ولأمت أنا أيضاً .. قبل أن أجرى خلفه فى مهانة لأتسول حنانه وعاطفته ..

وجاءت نادية لزيارتى ..

— حمد الله على السلامة يا نجلاء .. كيف تسافرين فجأة دون أن تقولى لى أو تقولى لأحمد ؟

— أحمد .. ولماذا أقول له ؟

— لماذا تقولين له .. أليس أحمد صديقك .. بل حبيبك .. ؟

— كان ..

— ماذا تقولين .. ؟

— أقول الحقيقة ..

— ماذا جرى .. ؟

— لا شيء ..

— كيف .. لا شيء ..

— أحمد لم يعد يحبني .. وأنا أيضاً بدأت أنسحب من حياته .. هذا كل مافى الأمر كل ما فى الأمر ..

وقمت من مكانى إلى النافذة وأعطيت ظهرى لنادية حتى لا ترى وجهى الذى أصبح بالتأكيد رهيباً .. وأردفت حتى أتجنب النظر إلى وجهها ..

— كأى قصة حب عادية .. تنتهى قصتى ..

— لماذا تشوهين حبك هكذا .. ؟

— أنا لم أشوهه ..

— بل تشوهينه عندما تقولين عنه إنه قصة حب عادية ..

— ولكنها كذلك ..

— لا .. إن قصص حبنا تظل أبداً قصصاً غير عادية .. حتى لوكانت فى الواقع عادية للغاية .. وعندما أسمعك أنت بالذات تقولين ذلك فأنا لاأصدق ... لا أصدق .

أحسست فجأة بنادية ورائى .. فمسحت دموعى بسرعة وسمعتها تقول ..

— ماذا قررت .. ؟

— قررت ألا أراه ..

— أنت تهربين ..

— أهرب من ماذا ؟

— تهربين من نفسك ..

— بالعكس .. أنا أواجه نفسى .. بل إنها لأكثر فترات حياتى قسوة .. لأنى لا أجد مفراً من مواجهة نفسى بلا مواراة ..

– لماذا تهربين منه وهو يحبك وقد اتصل بى تليفونياً أكثر من مرة مبدياً عجبه من رحيلك المفاجىء .. وصمتك ..

– لو بقيت لانتحرت .. كنت فى حاجة للبعد .. كنت فى حاجة لأغرق نفسى فى أى شىء آخر غير حبى .. وقد أغرقت نفسى فى مآس أكثر جدية من قصة حبى .. فتضاءلت بجوارها مأساتى .. بل حزنى .. فليس فى قصتى أى مأساة ..

– لماذا تفعلين هذا بنفسك .. ؟

– أنا لم أفعل شيئاً .. لقد بدأ هو كل هذا .. فإذا كان يجب أن يموت هذا الحب فليمت ..

ولم أحتمل فأجهشت بالبكاء .. وأخذتنى نادية فى أحضانها وراحت تربت على رأسى فى حنان ..

– لا تبكى ، لا تبكى يا نجلاء ..

وعندما خرجت نادية بعد وقت طويل ظللت أحملق فى المرآة وأغوص فيها .. فهذا الشكل يكون أنا أمام الناس ..

- ٣٨ -

رمى عبده السفرجى بسماعة التليفون وراح يكلم نفسه ..

- من هذا السخيف الذى يدق التليفون الساعة أربعة كل يوم ..ولا يرد .. لماذا لا ينام كخلق الله فى الظهر قليلا ؟

إنه لا ييئس من طلبى .. فيم كان انسحابه إذن ؟ وماذا يريد منى ؟

ومضت أيام أخرى ..

جلست فى المساء بجوار الراديو أسمع بعض الأغانى .. ورحت أثبت الغرز الأخيرة فى مفرش كانفاه .. رن جرس التليفون بجوارى .. ورفعت السماعة .. ترى من المتكلم ؟ ربما تكون شريفة ..

- آلو .. ؟

- نجلاء ..

- نعم ..

إنه أحمد .. كيف وقعت فى هذا الشرك .. لماذا يتصل بى فى المساء ..

- أريد أن أراك ..

- لماذا ؟

- لماذا ؟ . أنا أحب أن أراك دائماً .. لماذا لم تخبرينى بعزمك على السفر؟ .

- لم يكن بعزمى السفر.

– نجلاء .. لن نتناقش فى التليفون .. يجب أن أراك .. نجلاء أرجوك ..

– ......

– لا تصمتى .. سأنتظرك فى الكازينو .. غداً فى موعدنا .. إلى اللقاء ..

وأقفل الخط قبل أن أجيب بلا أو نعم .. وتركنى فى حيرة .. هل سأذهب .. ؟ لا ليس عندى مايقال .. وليس فى قلبى عواطف الحب القديمة .. كل شىء يبدو كأنه مضى منذ زمن طويل .. كأنها حكاية شخص آخر..

إذا كان الأمر كذلك فلماذا لا أواجهه .. لماذا أهرب منه كما تقول نادية؟ أنا لا أخافه ولن أضطرب فى حضوره كما كنت أضطرب .

وفى الموعد كنت هناك ، لم تكن بقلبى فرحة .. كان به فتور.. ولكن كان بعينى أحمد لهفة إلى لقائى وشوق ..

– نجلاء لقد أوحشتنى ..

ابتسمت وأكمل هو ..

– لماذا لم تخبرينى بعزمك على السفر .. لماذا تركتنى حائراً هكذا .. ؟

– ولماذا تحتار ؟ . أنا لم أغب كثيراً .. وأحياناً كانت تمر أيام دون أن يرى أحدنا الآخر .. ما الغريب فى هذا ؟

قال فى حيرة :

– نجلاء لقد كنت تخبرينى بكل شىء .. حتى بأحلامك .. وبالأفكار التى تدور فى رأسك ..ماذا جرى ؟

ثم قال بشىء من المرح :

– اعترفى أنك أخطأت .. هيا اعتذرى ..

– أنا لم أخطىء ..

– إذن أنا المخطىء وأعتذر ..

قلت أغيظه ..

ـ وأنا قبلت اعتذارك ..

قال بدهشة ..

ـ عن ماذا ؟

ـ عن طلبك اعتذاراً ..

ـ هكذا ؟ .

ـ نعم ..

ضحك وقال ..

ـ أنت لست نجلاء اليوم .. لنتكلم فى شىء آخر . أتعلمين أنى أكتب كتاباً جديداً ؟ .

ـ حقاً .. ؟

لماذا لا يناقش موضوع علاقتنا بصراحة .. لماذا يهرب من المواجهة ؟

أردف ..

ـ عندى كلام جديد أريد أن أقوله .. أفكار جديدة غيرت وجهة نظرى ومعتقداتى القديمة ..

سكت لحظة ثم أضاف..

ـ سأكتب إهداء مطبوعاً لك على الكتاب .. إننى أكتبه وأنت ورائى فى كل كلمة .. لماذا يضعف قلبى الآن .. وما تلك النغمة المفعمة بالعاطفة فى نبرات أحمد القاسية ؟ . لماذا هو عاطفى اليوم ؟ سمعته يعاود الكلام ..

ـ نانا ماذا بك .. لماذا تبتعدين ؟

إنه لأول مرة يدللنى دون أن يشعر .. ماذا جرى لأحمد ؟

ـ أنا لا أبتعد .. أنا معك ..

– إننا قريبان جداً وبعيدان جداً .. أين تحلقين بخيالك ؟. أنت لا تسمعين كلامى ..

لماذا يقترب أحمد منى عندما أجد القوة على الابتعاد عنه .. لماذا يتمسك بى عندما أصبحت أستطيع الإفلات من قيوده .. ماذا يريد منى ؟ . أنا لا أستطيع الاستمرار فى حب بلا أمل .. بلا هدف .. إلى الأبد .. إن الأيام الأخيرة طحنتنى .. سحقتنى ، أطاحت بعقلى .. إن علاقتى قلقة على الدوام .. وأنا لا أستطيع العيش هكذا بين اليأس والرجاء .. بين الحياة والموت .. ولكن هذا القلب الطفل يفرح لحلوى كلامه وأحمد يتكلم بعذوبة اليوم .. ولا يستطيع الطفل فى صدرى مقاومته ..

جاءنى صوته مرة أخرى عبر الهوة التى تفصل بيننا ..

– نجلاء .. ماذا يحزنك ؟ . أنا لا أتحمل أن أراك حزينة ..

هززت رأسى أقول :

– لا شىء ..

ونادى هو الجرسون ونقده قروشه .. وأخذ يدى بين يديه وهو يقول ..

– أنت فى حاجة للمشى .. والثرثرة ..

ومشينا كأيامنا الماضية .. يدى فى يده .. وقدمه تصاحب قدمى .. وهواء الخريف المشرب بالبرودة يصفع خدى ويدفع بنفسه من فتحة الثوب فيرعش جسدى وأزداد إحساساً بأنه يتلصص على .. إننا نمر بنفس الطرق كأيامنا الماضية .. ولكن شيئاً فى أنا وفيه هو كان قد تغير .. إحساسى أن تلك اللحظات مآلها أن تذوى كذكريات ميتة بلا غد .. بلا مستقبل .. وشعورى أنه هو قاتل اللحظات الجميلة لأنه لا يتيح لها مستقبلا .. ولماذا يفعل ذلك ؟ . أنا لن أسأله..

أنا مازلت لا أحب الشتاء .. والخريف بوابة ندخل منها مرغمين إلى

جبانة الشتاء .. السماء تفقد ضياءها الباهر .. فى عتمة الغيوم .. والأشجار تفقد أوراقها ..

قال أحمد :

ــ نجلاء .. تحدثى ، قولى أى شىء ..

ما فائدة أن أتكلم مادام هو لا يحس بالعذاب فى أعماق .. ماذا أقول له ؟

لن أقول له شيئا .. أجبت :

ــ لا شىء . مجرد تلك الفترة من السنة لا أحبها ..

ــ لماذا ؟

ــ لأنها توديع لسنة من عمرى .. فالأيام تجرى والسنون تجرى .. ونحن ليس فى يدنا سوى أن نحيا قيمة الصك الذى أعطته لنا الحياة بمبلغ من السنين لا ندريه .. فإذا انتهى انتهينا .. أضفت بعد فترة من الصمت ..

ــ كل شىء يموت .. لا شىء يخلد أبداً .. إن مجرد تصورى أن كل الناس الذين يعيشون الآن يموتون كلهم ويأخذ مكانهم ناس أغراب لا أعرفهم ولا يعرفوننى .. لهو شىء محزن .

قال أحمد :

ــ هذه نظرة حزينة جداً إلى الدنيا .. لم يكن من عادتك أن تنظرى إلى الدنيا هذه النظرة ..

ولم أشأ أن أقول له أنت الذى علمتنى هذه النظرة .. أنت الذى أورثتنى هذا الحزن الذى لا شفاء منه .. وسمعته يقول .. فى استسلام ..

ــ تلك هى الحياة .. ليس أمامنا سوى أن نحياها ..

ــ وسوى أن نرضخ ؟

ــ إذا أردت هذا التعبير فسأستخدمه .. هو رضوخ جميل على أى حال .. جميل أن نحيا ..

ـ وجميل أن نموت ؟

ـ ربما .. ما جدوى الاستمرار فى الحياة .. إذا كنت قد عشت لحظات بعمق واستمتعت بمباهج جمالها .. وحاولت أن تفهمها .. إن الموت يصبح نتيجة حتمية عندئذ ..

قلت بعد تفكير :

ـ أتعلم لماذا لا تترك الطبيعة أحداً يخلد ؟

نظر إلى أحمد باهتمام .. أردفت :

ـ لكيلا يكتشف أحد سرها .. إنها تميته بكل كنوز معرفته وتجاربه وعلمه.. إنها تفنيه ليعود من أول الطريق كطفل رضيع .. يحاول صبياً وشاباً ورجلا ... حتى إذا نبغ أتت عليه خوفاً على سرها من الذيوع .. ولتظل أبداً لغزاً مغلقاً علينا ..

لماذا وجدنا .. لماذا نحيا .. ولماذا نموت ؟

ـ ولكن الإنسان لا يموت بكل تجاربه .. إنه يتركها للناس من بعده ..

ـ يترك بعض الذى أدركه .. لقد ماتت بالتأكيد حقائق كثيرة مع الذين ماتوا واندثرت إلى الأبد ..

ـ أنت تستطيعين إدراك أجوبة كثيرة على أسئلتك العديدة .. دون خلود من مجرد حبك للحياة .. ومحاولتك فهمها .. عيشى وتمتعى بحياتك ..

ـ هذا هو كل ما نستطيع قوله ..

٣٩

قررت أن أستمتع وحدى بشىء صغير .. دون أن يشاركنى إياه أحمد..

خرجت بعد ظهر اليوم إلى الشارع .. مشيت بجوار الشاطىء .. وحيدة ، وإلى مدى بصرى كان الطريق خالياً من أى إنسان .. والشجر تتساقط أوراقه ليتلقاه الهواء فى دوامة دائرية تصعد بها إلى أعلى ثم ترميه إلى الأرض .. والنيل يسرع الخطا .. تدفعه آلاف الدوامات إلى مصيره ..

وفى السماء تكدست كتل ضخمة من السحاب .. رمادية .. والبيوت الموازية للنهر بدت مقفلة كلها كأن أحداً لا يسكنها ..

وحشة .. فى كل مكان .. وأنا مصرة برغم الوحشة على الاستمرار فى نزهتى . ومضيت أعد خطواتى .. واحد .. اثنين .. ثلاثة .. أربعة .. خمسة .. ستة .. سبعة ثمانية .. تسعة .. ولكن لماذا لا أستمتع بالنزهة اليوم .. وهى تماماً كنزهة أمس ؟ . فقط لاتصاحب خطواتى خطوات أحمد ولاتمسك يده بيدى .. ولا ينفذ إلى أذنى صوت صفير الهواء ووشوشة أوراق الشجر بجوار الرصيف .. إن ما ينقصنى هو أحمد ..

رحت أفكر فى أسباب حزنى تلك الأيام .. لماذا صنعت بنفسى كل هذا العذاب ؟ .

إنه أحمد والتغيير الذى دخل على تصرفاته نحوى .. وانسحابه القاسى من حياتى .. ولكن لماذا لا أقبل أحمد كما هو ؟ . لماذا لا أقبل تغيره ؟ .

يوم أن كنت عند شريفة فكرت أن عيب المرأة وتخلفها يرجع إلى أنها تصنع من الرجل كل حياتها .. وها أنا قد صنعت من أحمد كل حياتى لدرجة أن تغيره قد قلب حياتى رأساً على عقب .. ولكنى سأقبل أحمد كما هو على علاته وأجعله جزءاً من حياتى وليس حياتى كلها .. أرضانى هذا التفكير.. وجعلنى أتخلص من تعاستى إلى حد كبير..

قدمت أوراقى إلى كلية الفنون .. وقبلت .. ومضيت أنتظر بداية العام الدراسى الجديد .. إلى أن يبدأ رحت أفكر .. ماذا يجب أن أفعل بنفسى؟

ركبت العربة إلى شارع قصر النيل .. وابتعت ستائر وردية مزينة بورود وابتعت أثواباً جديدة .. وداخلتنى فرحة وأنا أبتاع هذه الأشياء ..

ازدادت الفرحة فى قلبى عندما تم تفصيل الستائر .. وأسدلت على النافذة والشرفة فأعطت للحجرة جواً بهيجاً وأسبغت على النور الذى ينفذ من فتحات الشيش الصغيرة لونها الوردى الشاب ..

٤٠

ارتديت ثوبى الجديد وذهبت لمقابلة أحمد .. ودخلت إلى الفندق الكبير على النيل .. فتح لى الباب الزجاجى .. فدلفت إلى الداخل .. أخذت العيون تنظر إلى .. وتتسلق قامتى .. وتتمهل عند وجهى وتلتصق بجلدى .. لم آبه لها . اتجهت إلى مائدة منزوية .. حيث ينتظرنى أحمد .. خلعت فردة قفازى بتمهل ورتبت الواحدة بجوار الأخرى بهدوء .. إن الهدوء يغلفنى بالرضا هذا الصباح ..

ــ كيف حالك يا نجلاء ؟

ــ أنا فى أحسن حال .. لقد أصبحت الحياة فجأة ترضينى .

قال بهدوء ..

ــ جميل .. ولكن ما السبب ؟

ــ لست أدرى .. ربما لأنى غيرت ستائر حجرتى ..

ــ هذا سبب طريف جداً ..

ــ أصبحت أحب فجأة كل الأماكن وكل الناس ..

ــ وماذا أيضاً ؟

ــ واشتريت فستانين جديدة ..

ــ أنت دائماً تشترين ..

ــ أنا فكرت .. وفكرت .. ربما أصبحت الحياة جميلة لوحاولت أن أجد لى

هدفاً أعيش من أجله .. لو تعلمت شيئاً .. إننا خلقنا لنتعلم .. أنا أنظر إلى الوردة فى الإناء أمامى .. إن كل الفرق بينى أنا العاقلة وبين تلك الوردة أنها تنمو تلقائياً .. هذه النتيجة أمدتنى .. وحققت الوفاق بين روحى وجسدى .. فلم يعودا منفصلين كدأبهما فى الماضى .. ولم يعد جسدى بيتاً بلا نوافذ وبلا أبواب .. سوف أحاول أن أنمو مثل هذه الوردة .. رفعت عينى إلى أحمد فوجدته يحاول محاولة فاشلة للابتسام لمشاركتى سعادتى .. إن أحمد جزيرة .. وأنا أيضاً جزيرة .. كلانا منفصل عن الآخر بمياهه الخاصة .. من المستحيل العبور إليه ..

همس أحمد :

– من أحزانى انبعثت سعادتك وانفتح أمامك طريق النجاة .. لسنا سوى الطبيعة نفسها .. تموت الزهرة ومن حبوبها تنبعث حياة أخرى..

لماذا يتكلم أحمد هكذا اليوم ؟ .

– أنا أموت من حياتك اليوم .. وغداً أموت من الدنيا كلها ولا يبقى سوى الكلمة التى أقولها وأمضى ..

عاد أحمد ليأسه .. وقسوته ..

– ليس هناك حب على الإطلاق .. ليس هناك حب للآخرين .. هناك حب النفس فحسب .. الحب الكبير الواحد .. حب الصيرورة .. ما أدونه فى كتاب أو لوحة .. وكل ما عدا ذلك يموت ويتحلل ..

قلت ..

– أنا آسفة لأنى آلمتك ..

– لا .. لا تأسفى أنا من داخل شقائى سعيد .. سعيد أن أكتشف ذلك .. فلا شىء يعلو على الحقيقة .. لا شىء .. لا أنا ولا أنت .. ما نحن سوى وسائل

لتكشف الطبيعة عن نفسها وهى تظهر فقط للذى يضحى ويعطى أكثر من نفسه ومن ذاته .. عندئذ تعطى الطبيعة جزءاً من حقيقتها ويقدر ما تعطى بقدر ما تمنح ..

صمت أحمد وشرد بعيداً واصطبغت عيناه بنظرة غامضة كأنها تطل على عالم آخر .. وشعرت أنى لا أستطيع أن أصل إليه إلا بآلام كآلامه .. كان يبدو لى أكثر غموضاً من أى يوم .. عاد يقول :

– اسمعى هذا المعنى الحزين من داخل سعادتك ..

أنت سعيدة لأنك تقتلين حبى فى قلبك .. أنت تهجريننى وأنا بجوارك.. وعندما تنقطع صلتك بى سيتوقف بالتالى عذابك ..

حاولت مقاطعته ولكنه أكمل :

– لم أعد أملا أو هدفاً فى حياتك.. ولم يكن وراء كل تلك العواطف سوى حبك لنفسك فلما انقطع أملك انطفأ بالتالى ما ظننته حباً لى .. وكان فى الحقيقة حباً لذاتك ..

قلت :

– لماذا تربط حبى الجديد للحياة بعدم حبى لك .. ألم يكن هذا اليوم هو اليوم الذى انتظرته لى .. يوم أن أحب الحياة ؟ ولكنك تتخلى عن علو الفنان وتتنزل إلى أنانية العاشق فتغار من حبى الجديد للحياة لأنه سوف يأخذنى منك ..

رد أحمد فى شرود :

– نجلاء .. أنا لا أفهمك ..

– سوف أشرح لك نفسى .. بل سأعرى عواطفى .. وأحكى لك حبى دون خجل ..

— هو نوع من الحب لم تعرفه ولم تحسه .. وأنا أمنحه لك لتضيفه إلى جزئيات الحقيقة التى تلمع وسط ركام الحياة والتى شغفت بجمعها .. بدأ حبى بحاجتى الملحة لاهتمام شخص ليثبت وجودى أيامها كنت فى حالة من القلق والشك والضياع بعد موت أخى .. وعندما ظهرت أنت ووجدت فى عينيك ذلك الأسى أحببت حزنى فيك .. وكدت أن ألتصق بك التصاق السابق بأخى ولكنك أبعدتنى .. وأعطيتنى الثقة بنفسى وشجعتنى على أن أقف وحدى .. وأنا أعترف بأنى أدين لك بذلك التكوين الجديد فى نفسى .. ذلك التكوين الذى أخذ ينمو ويصبغ جميع تصرفاتى .. أصبحت على وفاق مع نفسى فأصبحت بالتالى على وفاق مع الآخرين .. أحببت الحياة وأحببتك وأحببت كل شىء فيك حتى ذلك الصراع الذى يلازم جلساتنا .. وفوق ذلك منحتنى يا أحمد الوعى الوطنى ومنحتنى الشعور بالانتماء إلى بلدى مصر ولكنك فجأة وبدون مقدمات بدأت تتغير .. بدأت تبتعد .. وشعرت أنك تريد الانفصال .. واستبدت بى الحيرة .. وكان يجب أن أفعل شيئاً حى لا أفقد عقلى .. وسافرت هاربة إلى العزبة .. وهناك استطعت أن أصنع بنفسى من الداخل شيئاً أشبه بالاستئصال .. والآن مازلت أحبك ولكنى أستطيع أن أبتعد أو أقترب منك دون أن أموت ..

أمسك بيدى وضغط عليها ضغطاً قوياً حبيباً وامتلأت عيناه فجأة بدموع حقيقية .. ظللت أنظر إلى هذا الوجه الأسمر الذى أحببته وهاتين الشفتين الرقيقتين ذات التعبير الصادرم . والإرادة الماضية ..

رفع أحمد إلى وجهاً فيه نظرة جد روعتنى وبعثت الخوف إلى قلبى .. قال.

— نجلاء .. إذا كنت تملكين تلك الشجاعة الكبيرة التى تأبى الكذب ولاتتوسل بالكبرياء الزائفة .. فأنا أكون شجاعاً وسأقول لك الحقيقة.. برغم الآمال

الكاذبة التى يلفقها لى الأطباء ، فأنا أعرف بإحساس أنى أموت .. وأن خلية وراء أخرى فى جسدى تضعف وتغمض جفنيها وترفض منازلة جيوش المرض التى تغزو جسدى فى كل لحظة .. أنا أموت تدريجياً وأرفض أن أصنع منك أرملة ..

– لا تقل هذا يا أحمد ..

– الحياة لا تتوقف لموت أحد .. ولاتصمت لحظة إجلالا لذكرى إنسان راحل وإنما هى تنساب فى هدوء قاس متبلد القلب .. وكان الموت مسألة لا تعنيها ، وكأن الميت لم يكن له ذات يوم صوت يملأ الدنيا .. ولامفرلنا من الاستسلام أمام تلك القسوة ..

– إن كلمة الاستسلام لا تليق بك يا أحمد .. أنا لاأرضى لك أن تقول هذا الكلام ..أول ما أحببت فيك كانت نظرة التحدى بعينيك ..

أحمد .. من أجل فنك .. من أجل حبنا سافر .. تمسك بآخر أمل قاله الأطباء .. يجب أن تصارع من أجل ذلك الكنز الذى يحتويه جسدك. صارع يا أحمد .. لا تستسلم .. وإذا كان يجب أن تموت فيجب أن تموت ونحن نصارع الموت بلا خوف ..

انبثق فى عينى أحمد نور أضاء كل وجهه وشملنى ورفعنى على ضوئه إلى سماء رحبة واسعة .. تلامست أيدينا وتعانقت روحانا بوفاق وأمل ..

وسافر أحمد ..

سافر أحمد وبقيت وحدى فى القاهرة .. بل لم أبق وحدى .. بقيت مع نفسى .. تلاشى لأول مرة شعورى الدائم بالغربة .. فقد وجدت نفسى .. ولكنى برغم ذلك ظللت أفتقد أحمد الحبيب الذى أدين له بكل حياتى ..

افتقد أحمد البطل الذى كان يعلم طوال الوقت أن الأطباء يكذبون عليه بالآمال .. وبرغم ذلك استطاع أن يعيش ويهزم العدو الذى يسكن فى جسده والعدو الذى يسكن فى بلده .. استطاع أن يعيش ويحارب فى جميع الجبهات ..

وجاء أحمد فى رسالة ..

« نجلاء .. يا حبيبتى الصغيرة التى أصبحت جزءاً من نفسى ..

ها أنذا أصارع .. كما أردت لى أن أصارع .. وأحاول أن أصنع المستحيل .. ترى هل أعيش لأصارع الصراع الكبير .. وأهزم الداء الكامن فى بلدى .. كما أهزم الداء الكامن فى جسدى ؟ . هل أعيش لأرى اليوم الذى يأكل فيه الجائع ويكتسى العريان .. وتتحقق العدالة وينتهى طاغوت الظلم والظالمين ؟.

هل أشهد ذلك الفجر الرائع ؟ . »

قرأت الخطاب بدموع اليأس وقرأته أيضاً بابتسامة الأمل .. وظللت أقرؤه وأقرؤه حتى حفظت الكلمات .. معنى الكلمات .. شكل الكلمات وخط الكلمات .. ظللت أردد جملا بأكملها كترنيمة روحية من السماء ..

٤١

جاءتنى الجريدة مع الإفطار فى حجرتى .. تناولت الشاى كعادتى وأمسكت الجريدة وقرأتها .. قرأت العناوين الكبيرة .. وانزلقت عيناى إلى شبه اسم أحمد على الصفحة الأولى .. إنه ليس شبه اسمه .. إنه اسمه فعلا .. ما الذى جاء بإسم أحمد فى الصفحة الأولى كخبر ؟ . الخبر يعلن ماذا ؟ الخبر يزعم أن أحمد مات .. كيف تزعم جريدته أنه مات ؟ .. كيف تخون ابناً من أبنائها ؟ . أحمد لا يمكن أن يموت .. أحمد وعدنى أن يصارع ويرجع منتصراً .. حبيبى لا يمكن أن يموت .. كيف قبل رئيس التحرير أن يدس هذا الخبر الكاذب فى جريدته ؟ . وكيف رضى زملاؤه بذلك ؟ . وكيف تآمروا ضده ؟ حتى جامع الحروف الذى طالما جمع أفكار أحمد هو نفسه الذى جمع تلك الحروف السوداء المشئومة .

أمسكت الجريدة مرة أخرى وبدأت أقرأ من جديد .. ليس هناك خطأ .. المعنى صريح واضح والكلمات المرصوصة السوداء تنعى أحمد .. الكلمات فى حروف قليلة باترة .. وأحسست أنى أنزلق .. أغوص فى بحر الحزن الأسود وأغرق فى سواد الحروف .. تمنيت أن أموت .. أن أتجمد .. أن أتحول إلى تمثال لا يشعر .

أمسكت بالجريدة وقلبت الصفحات لأقرأ العزاء التقليدى ..

أحمد مات .. ومع ذلك تشرق الشمس كعادتها كل يوم وكأن لا شىء حدث ..

٤٢

اردت شيئاً يجسم لى أحمد .. شيئاً يقربه منى .. وهناك فى العزبة أحسست به فى الأرض .. فى ثراها الطيب .. وبراعمها الخضر ..

رحت أتجول فى الحقول وأتأمل السماء وأتذكره .. إنه لم يضع منى ، إنه هنا معى .. يكلمنى بلغة الورود والأنسام .

هبت نسمة باردة على المزرعة أثلجت وجهى وأطرافى .ضممت الجاكت إلى صدرى ومضيت أتسمع صوت أحمد الذى تحول إلى موال ريفى عميق..

هبط الظلام على الكون رويداً ومسح بقايا الظلال ..

إن أحمد لم يمت .. إننى أراه فى كل شىء جميل .. فى الطبيعة الفنانة ، فى الأسى الذى يغلف السماء فى رحابة الأفق .. إنه لم يمت إنه يكلمنى ويتحدث معى عبر الكون كله ..

إن الواحد منا لا يموت .. إننا أجزاء من الطبيعة الأم .. ننفصل عنها بالحياة .. ثم نعود إليها بالموت .. فتصبح الطبيعة الكل ..

٤٣

رجعت إلى القاهرة .. وتحول حزنى العميق إلى إحساس ملح بأن الحياة يجب أن تستمر .. واجبى نحو ذكرى أحمد .. ونحو نفسى أن أستمر أن أصارع قدرى وأنتصر فى تلك اللعبة غير المتكافئة .. واجبى أن أصنع من نفسى شيئاً .. بهذا يصبح موتى انتصاراً وليس هزيمة ..

فتحت الكلية أبوابها .. ودخلت إلى دنيا الفن الجميل .. دنيا التعبير بالخط واللون ..

سأتحدث أول ما أتحدث باللون عن اللالون .. عن السواد .. عن الحزن.. عن حبى التعس .. سأقول فى لوحة تصرخ بالألوان المشتعلة .. إن الواقع الذى نعيش فيه واقع كاذب مزيف ملىء بالمظالم .. سأحرك المشاعر وأثير الوجدان وأدافع عن الإنسان المظلوم فى كل مكان ..

فتحت باب الفيلا ووقفت على السلم المؤدى للحديقة ..

فاجأتنى طوابير هائلة من الأسلحة الثقيلة والمصفحات متجهة إلى طريق الإسكندرية وصكت أذنى صيحات باعة الصحف.. تعلن عن ثورة الجيش وانقلاب ٢٣ يوليو ..

وقفت فى مكانى مشدوهة .. أتتبع الطوابير التى تمر متعاقبة أمام عينى.. نظرت إلى شجرة المشمش .. كانت موجودة .. هناك فى مكانها منتصبة

فى قوة مورقة فى جمال .. مرتفعة فى سمو .. متغلغلة فى الأرض.. واقفة فى وحدة أبدية تعلن عن انتصار الحياة ..

وكانت صلصلة سيور الدبابات تهز الأرض .. وأنا واقفة فى مكانى أبتسم ..

لقد بدأ الفجر يلوح ...